الباب الخامس

فى ذكر الزيادتين اللتين زيدتا فى المسجد الحرام

بعد تربيعه الذى أمر به المهدى بن المنصور العبّاسى وشرع فيه فأدركَتْه الوفاة قبل إتمامه وأتمّ فى ولاية الهادى بن المهدى المذكور كما سبق شرح ذلك فيما تقدم.

ووقع ترميم فى الجانب الغربى من المسجد الحرام قبل الزيادتين فى أيام المعتمد على الله العبّاسى، ثم بُنيت الزيادة الكبرى من الجانب الشمالى من المسجد الحرام، فى أيام المعتضد بالله، ثم زيدت الزيادة الصغرى فى الجانب الغربى من المسجد الحرام فى أيام المتقدر بالله، فنذكر تراجم هذه الخلفاء ولنذكر ما أحدثوه فى المسجد الحرام من تجديد وزيادة وترميم على الترتيب إن شاء الله تعالى مع ما نذكر فى ضمن ذلك من الفوائد الاستطرادية ترويحًا للنفس وتسبيبًا لحصول الفوائد والأنس وتوقيفًا على أحوال الدهر وتعريفًا بما يَحْدُث من الحوادث فى كلّ عصر، لئلاّ يعتمد العاقل على هذه الدنيا، ويعتبر بمن قبله فى غدر هذه العجوز العَمْيَا، وهذه الفوائد فى الحقيقة نتائجُ علم الأخبار ليعتبر المعتبر حال نفسه بحال غيره فى هذه الدار، فإن من قواعد الحكمة أن أفعال الفاعل الواحد متشابهة الآثار، والله تعالى هو الفاعل المختار، والعبد العاجز غير مختار، وربُّك يفعل ما يشاء ويختار، وإن الدار الآخرة لهى دار القرار.

وقد وجدت محلّ القول ذا سعةٍ فإن وجدتَ لسانًا قائلاً فَقُلِ

لمّا قتل متغلّبة العبيد الأتراك الخليفة المهتدى بالله صَبْرًا عمدوا إلى الحبس فأخرجوا منه ابن عمّه أبا جعفر أحمد بن المتوكّل على الله بن الرشيد

العبّاسى ولقّبوه المعتمد على الله[١]، وبايعوه على الخلافة فى رجب سنة ست وخمسين ومائتين ومولده سنة تسع وعشرين ومائتين، وأُمّه أُمّ ولد رومية اسمها فتيان[٢].

وكان له انهماك على اللَّهْو واللَّذّات فقدم أخاه طلحة بن المتوكل على الله ولقّبه الموفّق بالله وجعله ولىّ عهده، وولاّه الحجاز والمشرق واليمن وفارس وطبرستان وسجستان والسند، وكان له ولد صغير اسمه جعفر لقّبه المفوّض إلى الله، وولاّه المغرب والشام والجزيرة، وعقد لهما لواءَيْن أبيض وأسود، وعقد لهما البيعة وشرط على أخيه الموفق أنه إن حدث له الموت وولده صغيرٌ كان الموفّق ولىّ عهده وإن كان حينئذ ولده كبيراً كان ولده ولىّ عهده، وكتب بذلك معاقدة كتب كل منهما خطّه عليها، وكتب عليها القضاة والعدول خطوطهم وأرسلها إلى مكة لتعلّق فى الكعبة فعُلقت فيها، وما أفاد مع هذه التدابير حذر عن قدر، وما وقع إلا ما قدره الله تعالى[٣].

وكان الموفق عاقلاً مدبرًا شجاعًا مشتغلاً بأمور المملكة ملتفتًا لأحوال الرعيّة، وكان أخوه المعتمد مكبًا على لَهْوه ولَذّاته مهملاً لأحوال الرعية غير ملتفت لأمور المملكة، فكرهه الناس وأحبُّوا أخاه طلحة الموفق بالله، وظهرت منه نجابات كثيرة وكان مَيْمُون النقيبة مظفّرًا فى الحروب.

وكان ظهر فى أيّام المعتمد على الله طائفة الزنج وتغلّبوا على المسلمين وكان لهم رأس اسمه بُهْبُول يدّعى أنه أرسله الله تعالى إلى الخلق، وادّعى علم المغيّبات وفتك فى المسلمين بحيث ذكر الصولى أنه قتل ألف ألف وخمسمائة ألف مسلم، وكان يستأسر نساء المسلمين ويبيعهنّ بأبخس الأثمان، كان ينادى على العلوية والشريفة بدرهَمَيْن، وكان عند الزنجىّ عشر نساء شرائف يَطَؤهُن ويمتهنهُنّ فى الخدمة الشاقة[٤].

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤٢١.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٢١.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٤٢٢.

(٤) تاريخ الخلفاء ص٤٢١.

وكان ذلك من أعظم المصائب فى الإسلام، وتملّك هذا الكافر مُدُنًا كثيرة أخذها من المسلمين، واستأصل أهلها، وجعلها دار مملكته كواسط ورامهُرْمُز وما والاهما.

فانتدب لقتاله الموفق بالله وجمع الجموع والعساكر ممن حَنكتْه وقائع الحروب، ووَسَمته قوارع الخطوب، فاتخذهم جنانًا ويَدًا، ورضى بهم ساعدًا وعَضُدًا، وتعصَّبَ لعمود الإسلام، وأعدّ السيوف والرماح والسهام، فركض بجَحْفَله إلى الأعداء الكفرة اللّئام، إلى أن التقت الفئتان على حومة الحرب، وتساقيا كئوس الطعن والضرب، فجفلت السودان من لَمَعَان الصارم الأبيض، وولّوا الأدبار للفرار كما يفرّ الليل الأسود من النهار المبيّض، وانهزموا ما بين مقتول ومأسور، ومجرُوح ومكسور وغير مجبور، إلى أن قُتل كبيرهم بهبول، ووجوه عسكره المخذول، ونصر الله تعالى ملة الإسلام، ومَحَا الله تعالى بنوره ذلك الظلام، واستردّت المُدُنُ التى أخذها بالكُفر والعناد، كواسط ورامهرمز وغيرهما من البلاد، واطمأنت المسلمون وكافّة العباد، ولقّبوه الناصر لدين الله وصار له حينئذٍ لقبان، ودخل إلى بغداد فى عظمة وعُلُوّ شأن، ورأس هذا الكافر على رمح ورءوس كبار عسكره على الأرماح، ودعا له المسلمون وقصده الشعراء بالقصائد والأمداح، فأحبَّه الناس وبَعُدَ صيتُهُ وكثر فى بابه المدّاح، واستفحل أمره ولاحت له السعادة والفلاح، واستمرّ أخوه المعتمد على حاله مُنْهَمكًا فى لَهْوِه ولَذَّاته، وله اسم الخلافة وجميع الأمور يتلقّاها الموفّق بصَدْر منْشَرح وسدّ غاية السداد[1].

وفى أيّامه فى سنة إحدى وسبعين ومائتين وقع وهن فى بعض جُدران المسجد الحرام من الجانب الغربى قبل زيادة باب إبراهيم، وكان فى نفس الجدار الغربى من المسجد الشريف باب كان يقال له باب الخيّاطين، وكان بقربه دار تسمّى دار زُبَيْدَةَ بنت أبى جعفر المنصور، فسقطت تلك الدار على سقف المسجد الحرام فانكسرت أخشابه وانهدمت أسطوانتان من أساطين

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٢١.

المسجد الحرام، ومات تحت ذلك عشرة أنفس من خيار الناس، وكان عامله بمكة يومئذ هارون بن محمد بن إسحاق، وقاضيها يوسف بن يعقوب القاضى، فلما رُفع أمرُ هذا الهدم إلى بغداد أمر أبو أحمد الموفق بالله عامله على مكة هارون المذكور بعمارة ما تهدّم من المسجد الشريف وجهز إليه مالاً بسبب ذلك، فشرع فى عمارته وجدّد له سقفًا من خشب الساج ونقشه بالألْوان المزخرفة وأقام الأسطوانَتيْن الساقطتَيْن وبنى عقودهما وركب السقف[١].

ونصب فى أيام عمارته سُرَادِقًا بين العُمَّال والبنّائين وبين الناس ليَسْتُرَهُم من أعين من بالمسجد إلى أن أكمل ذلك ولله الحمد فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وركب من الحِجْر لَوْحَيْن فى جدر المسجد الشريف فى ذلك الجانب نقش على أحدهما بالنقر فى لوح الحجر ما صورته: بسم الله الرحمن الرحيم، أمر أبو أحمد الموفق بالله الناصر لدين الله ولى عهد المسلمين أطال الله بقاءه بعمارة المسجد الحرام، رجاء ثواب الله تعالى والزُّلْفى إليه، وتمّ ذلك على يد عامله على مكة ومخاليفها هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين[٢].

وعلى اللوح الثانى نقر كتابة صورتها: بسم الله الرحمن الرحيم أمر الناصر لدين الله ولىُّ عهد المسلمين أبو أحمد الموفق بالله أخو أمير المؤمنين أطال الله بقاءهما القاضى يوسف بن يعقوب بعمارة المسجد الحرام لما فى ذلك من رجاء ثواب الله تعالى، أجزل الله ثوابه وأجره، وتمّ ذلك على يد محمد بن العلاء بن عبد الجبّار فى سنة اثنتين وسبعين[٣].

والحجران المذكوران، لا وجود لهما الآن، بل محاهما الدهر والأزمان، وعفى أثرهما القديم الجديدان، كما عفى أثر غيرهما من العمائر والبنيان،

(١) أخبار مكة للفاكهى ٢/ ١٧٥، منائح الكرم ٢/ ١٧٧.
(٢) الفاكهى ٢/ ١٧٦.
(٣) نفس المصدر.

ودار عليهما الدَّوَرَان، ولا يبقى الأثر أيضًا بعد زمان.

الدهر يفجع بعد العَيْن بالأثر فما البُكاء على الأشباح والصُّوَرِ

وقد نقلتُ صورة تلك الكتابات من تاريخ مكة للإمام أبى عبد الله محمد ابن إسحاق الفاكهى رحمه الله تعالى.

وكان للموفّق بالله ولد نجيب هو أحمد أبو العبّاس جعله الموفّق ولىَّ عهده واستعان به فى حروبه وأحواله وظهرت به نجابة وقوّة فخشى الموفق منه على نفسه وعلى أخيه المعتمد لما رأى من شجاعته وبَسَالته فأَوْدَعه بطن الحبس ووكّل به من يَثِقُ به فى أمره واستمرّ محبوسًا إلى الزمان الذى قدره الله تعالى له، ثم وقعت الوحشة بين الخليفة المعتمد على الله وأخيه الموفق بالله المذكور وتباغضت قلوبهما وتشاحنت الصدور فإن الرياسة الدنيوية لا تقبل الاشتراك، والغيرة على الملك والسلطنة أسرع شىء يُوغر صدور الأملاك، والانفراد والاستقلال ممّا يتفانى عليه أبناء الدنيا من أصحاب الأملاك.

وما هى إلا جيفة مستحيلة عليها كلابٌ هَمَّهُنَّ اجتذابُهَا

فإن تجتنبها كنتَ سِلْمًا لأهلها وإن تجتذبها نازعَتْك كلابُهَا

ولّما كان المعتمد على الله مع كونه عاجزًا عن أخيه الموّفق، كان يحسُدُه ويريد هَضْمه لاستيلائه على المملكة ورضاء الناس عنه واشتغاله بالفحص عن أحوال الرعيّة عن الملاهى والملاذ، فاستعان المعتمد على الله فى هَضْم جانب أخيه بصاحب مصر يومئذٍ أحمد بن طُولون، وكان ملكًا شُجاعًا فاتكًا صاحب جيوش وجنود كثير الأموال والخزائن مستقلاً بمملكة مصر، يأخذ خراجها، وكانت يومئذٍ عامرة آهلة كثيرة المحصول لرِفْقه برعيّته وتقويته لهم وعدم ظلمه وجَوْره عليهم، فكان يَحْصُل منها أموالاً كثيرة جدًا بسبب عمارتها، وكانت كالروض البهيج على زهرتها ونضارتها بعدما كانت خرابًا يبابًا أكثرها مَأوَى البُوم والصَّدَا، ولا تغرّق أهلها ورعيّتها من جور وُلاتها بَدَدا..

عمّرها الله تعالى بمَعْدلة سلطاننا الأعظم، وخليفة عصرنا الأكرم الأفخم،

الذى عمّر بمعدلته البلاد، سلطان السلاطين السلطان مُرَاد، ألْهمه الله تعالى العدل والرفق بالعِباد، ومحَقَ بسيفه الصارم أهل الظلم والفساد، وأطال عُمْرَه ودولته حتى تلحق الأحفاد بالأجداد.

فكاتب المعتمدُ على اللهِ أحمد بن طولون، وأمره أن يقاتل أخاه الموفق ليخفّ أمره بذلك عليه ويَهُون، وجرَتْ بينهما من ذلك شئون، واشتغل الموفق بذلك عن أخيه، وصار يواليه تارة ويُدَارِيه، ويباعده تارة ويُدَانيه، ومضى على ذلك أيّام، وانقضى عليه أعوام، إلى أن مالت قناة حياة الموفق كلّ المَيْل، ولزم بطون الفراش بعد مُتُون سَوَابق الخَيْل، وَوَهَى جِسده ووهنَتْ قواه، ولا صانه حصانه ولا وقَاه:

وخــانه يــده عــن حمله قلمًا من بعد حَطْم القنا فى لَبَّة الأسَدِ

فلمّا اشتدّ حاله، وتحقّق عند غلمانه مآله، بادروا إلى الحبس وكسروه، وأخرجوا منه ولده المعتضد وآوَوْه ونصروه، وجاءوا به إلى والده الموفّق، فلمّا رآه أيقن بالموت وتحقّق، وقال له: يا ولدى لهذا اليوم خَبَأتُك وفوض إليه وأَوْصاه بعمّه المعتمد، وكان ذلك قبل موت الموفق بثلاثة أيام فعطف الموتُ على الموفق عطفَ النَّسَق، فركب طبقًا عن طبق، إلى أطباق الثَّرَى بالعَنَق، ومضى عن الدار الفانية إلى الدار الباقية والتَحَق.

وكانت وفاته رحمه الله فى سنة ثمان وسبعين ومائتين وشَمتَ فى موته أخوه المعتمد، وظنّ أنه استراح من الموفق، وما علم أنه عن قليل بأخيه مُلْحق، وحسب أنه صَفَا له زمانه ودهره، وما علم أن الصفا يعقبه الكدر، وأن الدهر ما صفا لأحد من البشر، وأن صروف الدهر تأتى بالغِيَر والعِبَر، وأنها لا تبقى ولا تَذَر، فما حال عليه الحَوْل، حتى استلب ذلك الطَول والحَوْل، ولم يكن له بعد خذلان الناصر، من قوة ولا ناصر، ولا طال عمره القصير ولا استطال حوله القاصر، ولم يبق للمعتمد عماد ولا اعتماد على الدهر الخئون الغادر، فانتقل من سرير الملك، إلى خطير الهُلْك، ومضى كأنّه لم يكن شيئًا مذكوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وكانت وفاته

ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين رحمه الله.

وولى الخلافة بعده فى تاريخه ابن أخيه أبو العباس أحمد المعتضد[١] بالله ابن طلحة الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد العبّاسى مولده سنة ثلاث وأربعين ومائتين، وبويع له بالخلافة بعد عمّه المعتمد فى تاريخ وفاته المذكور آنفًا، وأُمُّه أُمُّ ولد اسمها صَوَاب، وكان ملكًا مهيبًا ظاهر الجبروت وافر العقل شجاعًا يَقْدَمُ على الأسد وَحْده شديد السياسة، قليل الرحمة، إذا غضب على أحد ألقاه فى حُفرة وطمّ عليه التراب[٢].

وكان أسقَطَ المُكُوس فى أيّامه ورفع الظلم عن الرعيّة، وجدّد ملك بنى العباس بعد ما وَهَى ووَهَنَ، وأظهر عزّة الملك بعدما تذلّل وامتَهَنَ، وكان يُسَمَّى السفّاح الثانى حيث جدّد كلّ منهما ملك بنى العبّاس، وفى ذلك يقول ابن الرُّومىّ:

هنيئًا بنى العبّاس إنّ الملك ... إمام الهُدَى والبأس والجود أَحْمَدُ
كما بأبى العباس أُنشئ ملككُمْ ... كذا بأبى العباس أيضًا يجدَّدُ
إمامٌ يَظَلّ الأمْس يَشْكُو فراقَه ... تَأسف ملهوف ويشتاقه غدُ[٣]

وفى ذلك يقول عبد الله بن المعتز أيضًا:

أما ترى مُلْك بنى هاشم ... عاد عزيزًا بعدما ذُلّلاَ
يا طالبًا للمُلك كُنْ مثله ... تستوجب الملكَ وإلاّ فَلاَ[٤]

وكان مع سَطْوَته وبأسه يتوخّى المعدلة، ويُبْرز أمورًا فى صورة الجبروت والعسف، وهو فى الباطن محقٌّ فيما يفعله، وهذا هو الرأى السديد للحاكم الرشيد، لجمعه ما بين سياسة الدنيا وملاحظة ما هو الحقّ عند الله تعالى.

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤٢٧.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٢٧.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٤٢٨.
(٤) تاريخ الخلفاء ص٤٢٨.

وقد نقل الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى فى تاريخ الخلفاء عن عبد الله ابن حَمْدون، قال: خرج المعتضد للصَّيْد يومًا ـ وأنا معه ـ فمرّ بمقثأة فعاث بعض جنوده فيها، فصاح صاحبها واستغاث بالمعتضد فأحضره وسأل عن سبب صياحه، فقال: ثلاثة من غلمانك نزلوا المقثأة فأخربوها، فأمر عبيده بإحضارهم فضرب أعناقهم ومضى وهو يحادثنى، فقال: اصدقنى يا عبد الله ما الذى ينكره الناس علىّ من أحوالى؟ فقلتُ له: تسفكُ الدماء كثيرًا، فقال لى: ما سفكت دمًا حرامًا قطُّ، فقلت له: بأىّ ذنب قتلت أحمد بن الطّيب؟ فقال: إنه دعانى إلى الإلحاد فظهر لى إلحاده فقتلتُه لنُصرة الدين، قلتُ: فالثلاثة الذين نزلوا المقثأة الآن بم استحللت دماءهم ولأىّ شىء قتلتهم؟ فقال: والله ما قتلتهم، وإنّما استحضرتُ ثلاثة من قُطّاع الطريق وأَوْهَمتُ الناس أنهم هم الذين نزلوا المقثأة فأمرت بضرب أعناقهم، ثم أحضر صاحب الشرطة فأمره بإحضار الثلاثة الذين نزلوا المقثأة فأحضرهم بأنفسهم وشاهدتهم ثم أمر بإعادتهم إلى الحبس[1].

وهكذا ينبغى تدبير السياسة وإظهار النصفة وتخويف الجند وإرهابهم.

ومن معدلته أنه كتب إلى الآفاق بإبطال ديوان المواريث والأمر بتوريث ذوى الأرحام، وكانوا يحرمونهم الميراث وكانوا يستولون على مخلّفات الأموال بالظلم ولا يتّصل الوارث بجميع حقّه من الإرث، بل يُؤخذ كثير من عين حقّه بأنواع من التعلّلات، وكان يَحْصُل على الرعيّة ظلم كثير بسبب ذلك.

وبعض الظلم باقٍ الآن يَسر الله تعالى إزالته على يد سطلان عصرنا وفقه اللهُ لإحياء المكارم، وإسداء المراحم، وأعانه على إبطال المظالم.

ولمّا أمر المعتضد بإبطال ديوان المواريث فى سائر مملكته فرح الناس بذلك، وأحبّوه ودعوا له بدوام دولته وصار ما بذلك صيت عظيم، وأجر جميل عند الله الكريم، ولعلّه هو الذى نفعه فى آخرته وأدخله الله جنّات النعيم.

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٢٧.

وكان من قُضاته الإمام العالم العلاّمة القاضى أبو خارم ـ بالخاء المعجمة والراء المهملة[١] ـ وهو من أكابر العلماء أهل الدين والتقوى، وكان من بعض تصلُّباته فى الدين أن شخصًا انكسر عليه مالٌ كثير للناس وثبت ذلك عليه عند القاضى المذكور فأمر بتوزيع ماله على غرمائه بالمحاصّة، وكان قد انكسر على ذلك المَدْيُون مال للخليفة المعتضد أيضًا فأرسل المعتضد إلى القاضى أبى خارم يقول له: أشركْنى مع غرماء هذا المديون بالمحاصّة فإن لى أيضًا مالاً فى ذمتهم فاجعلنى كأحد غرمائه فقال أبو خارم: إنى لا أحكم لمُدَّعٍ بدون بيّنة، عادلة فأرسلْ وكيلاً وبيّنة أرضاها لتكون بإسْوَة غرماء هذا المديون فأحكمُ لك بعد سماع الدَّعْوَى والبيّنة والتزكية سِرًا وجَهْرًا، فأمر المعتضد شهوده ليشهدوا عند القاضى، وكانوا من أكابر أمرائه وأماثلهم، فما حضر أحد منهم إلى القاضى خوفًا من ردّ شهادتهم ولم يحكم القاضى للمعتضد أن يكون بإسْوة غرماء ذلك المديون، فأعجب المعتضد ديانة القاضى وثباته على الحقّ وتصميمه على ذلك وعدم ميله إليه[٢].

وما أحوَجَ زماننا هذا إلى قاضٍ مثل هذا خصوصًا فى أطراف البلاد، يقول الحقَّ ويثبت ولا يميل إلى خواطر العباد.

وكان المعتضد ينظم شعرًا حسنًا، ومن نظمه ما رثى به جاريته دريرة[٣]:

يا حبيبًا لم يكَدْ يعْـ ـدله[٤] عندى حبيبُ
أنت عن عينى بعيد ومن القلب قريبُ
ليس لى بعدكَ فى[٥] شىْ ءٍ من اللَّهْوِ نصيبُ
لك من منقلبى على قَلْـ ـبى وإن غبت رقيبُ

(١) لدى السيوطى فى تاريخ الخلفاء «أبو حارم» بالحاء المهملة والزاى المعجمة.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٣٠.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٤٣٠ ـ ٤٣١.
(٤) فى ل: «يعدلنى» والمثبت من م، ومثله لدى السيوطى فى تاريخ الخلفاء.
(٥) فى ل: «من» والمثبت من م، وتاريخ الخلفاء.

لو ترانى كيف حالى فرط عَوْل ونحيبُ
وفُؤَادى حَشْوُه من حُرقِ القلب لهيبُ
لتَيَقَّنْتَ بأنّى فيك محزون كَئِيبُ

وقال لما احتضر[1]:

تمتَّعْ من الدنيا فإنك لا تبقى
وخُذْ صَفْوَها لما صَفَتْ ودعَ الرَّنَقَا
ولا تأمنّ الدهر إنى أمنته
فلم يبق لى حالا ولم يَرْعَ لى حقّا
قتلت صناديد الرجال فلم أَدَعْ
عدوًّا ولم أمهِلْ على حَسَدٍ خَلْقا
وأَخْلِيتُ دور الملك عن كلّ نازل
وفَرَّقتهم غَرْبًا ومزّقتهم شَرْقا
فلمّا بلغت النجم عزّاً ورفعةً
ودانت رقاب الخلق أجمع لى رقّا
رمانى الردى سَهْمًا فأَخْمَدَ جَمرتى
فهأنذا فى حُفرتى عاجلاً مُلْقَى
وأفسدت دُنْياى ودينى سفاهةً
فمن ذا الذى منى بمَصْرَعه أشقَى
فيا ليت شعرى بعد موتى ما أرى
إلى رحمة الله أم ناره أُلْقَى

ومّما وقع فى أيام المعتضد من عمارة المسجد الحرام زيادة دار النَّدْوَة وإدخالها فى المسجد الشريف من الجانب الشامى وهى أوّل الزيادتَيْن، وهى

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٣٢.

صَحْن مربّع بأربعة أَرْوِقَة من جوانبه الأربعة أُضيف إلى المسجد الحرام فى وسط الجانب الشامى ملصقة، إلى رواق الجانب المذكور، وهذا المحلُّ يسمّى دار الندوة، وهى كانت فى زمن الجاهلية دارًا تجتمع صناديد قريش فيها عند نزول حادث بهم للاستشارة فى دفع ذلك الحادث عنهم بالاتفاق على رأى يجمعون على كونه صَوَابًا فيأتون به بعد ذلك، وكانت الندوة ممّا تتفاخر به قريش فى الجاهلية، وكان قد اجتمع فى قُصَىّ بن كلاب الرفادة والسقاية والسدانة واللواء والندوة ففرّقها فى أولاده.

ولمّا ظهر شأن النبىّ ﷺ وآمن به كثير من قريش ومن الأنصار خاف منه كُفَّار قريش واجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى قتله ﷺ، فظهر لهم إبليس لعنه الله فى صورة الشيخ النَّجْدى واختار لهم من الرأى ما اختاره، فنجّاه الله تعالى من كيد المشركين وأذن له فى الهجرة، كما هو مشهور ومذكور فى كُتُب السيرة، وذكره الله تعالى فى كتابه العزيز، حيث قال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣].

وليست الزيادة هى عين دار الندوة بل محلّها فى تلك الأماكن لا على التعيين من خلف مقام الحنفىّ الآن إلى آخر هذه الزيادة.

وكانت دار الندوة بعد ظهور الإسلام وكثرة بناء الدور بمكة دارًا واسعةً تنزل بها الخلفاء إذا وردوا مكة ويخرجون منها إلى المسجد الحرام للطواف والصلاة وكان لها فناء واسع صار سُباطة تُرْمَى فيه القمائم، فإذا حَصَلَت الأمطار القويّة سار من الجبال التى فى يسار الكعبة مثل جَبَل قُعَيْقَعان وما حوله من الجبال سيول عظيمة إلى ذلك الفناء وحملت أَوْساخه وقمائمه إلى دار الندوة وإلى المسجد الحرام، واحتيج إلى تنظيف تلك الأوساخ والقمائم من المسجد الشريف كلّما سالت سيول هذا الجانب الشمالى، وصار ضَرَرًا على المسجد الحرام[1].

(١) إتحاف الورى ٢/ ٣٤٩.

فكتب قاضى مكة يومئذ من قبل المعتضد العبّاسى القاضى محمّد بن عبد الله المقدمى[١] وأمير مكة يومئذ من قبله أيضًا عجّ بن حاجّ مولى المعتضد المذكور، مكاتبات إلى وزير المعتضد يومئذ وهو عبيد الله بن سليمان بن وهب تتضمّن أن دار الندوة قد عظم خرابها وتهدّمت وكثيرًا ما تُلْقَى فيها القمائمُ حتى صارت ضررًا على المسجد الحرام وجيرانه، وإذا جاء المطر سالت السيول من بابها إلى بطن المسجد وحملت تلك القمائم إلى المسجد الحرام، وأنها لو أخرج ما فيها من القمائم وتهدّمت وبُنِيتْ مسجدًا يوصل بالمسجد الحرام أو جُعلت رحبة يصلّى الناس فيها ويتّسع الحجّاج بها لكانت مكرمة لم تتهيّأ لأحد من الخلفاء بعد المهدى والهادى، ومَنْقَبة باقية وشرفًا وأجرًا باقيًا على طول الزمان، وأن بالمسجد خرابًا كثيرًا وأن سقفه يسيل منه الماء، إذا جاء المطر، وأن وادى مكة قد انكبس بالأتربة فعَلَت الأرض كما كانت، وصارت السيول تدخل من الجانب اليمانى أيضًا إلى المسجد الحرام، ولا بُدَّ من قطع تلك الأراضى وتمهيدها وتنزيلها إلى حدّ تَمُرّ فيه السيول منحدرة عن الدخول إلى المسجد الحرام[٢].

ووفد أيضًا إلى بغداد سدنة الكعبة ورفعوا إلى ديوان الخلافة أن وجه جدران الكعبة من باطنها قد تشعّث، وأن الرخام المفروش فى أرضها قد تكسّر، وأن عُضَادَتَىْ باب الكعبة كانتا من ذهب فوقعت فتنة بمكة سنة إحدى وخمسين ومائتين بخروج بعض العَلَوِيّين، فقلع عامل مكة يومئذ ما على باب الكعبة من الذهب فضربه دنانير واستعان به على حرب العَلَوِىّ الذى خرج عليه يومئذ، وصاروا يسترون العضادتَيْن بالديباج[٣].

ووقعت بعد هذا أيضًا فتنة بمكة فى سنة ثمان وستين ومائتين فقلع عامل مكة يومئذٍ مقدار الرُّبُع من الذهب الذى كان مصفحًا على باب الكعبة، ومن

(١) فى الأصلين المقدسى، والمثبت من الأزرقى ٢/ ١١١، وشفاء الغرام ١/ ٣٦٣، وإتحاف الورى ٢/ ٣٤٩.

(٢) الأزرقى ٢/ ١١١.

(٣) الأزرقى ٢/ ١١١.

أسفله وما على أنف الباب الشريف من الذهب فضربه دنانير واستعان به على دفع تلك الفتنة، وجعل بدل الذهب فضّة مموّهة على الباب الشريف، وعلى أنف الباب المنيف، فإذا تمسّح الحجّاج به أيام الحجّ تبرُّكًا بذلك المكان الشريف، ذهب صِبْغُ الذهب وانكشفت الفّضة فيجدّد تمويهها كلّ سنة، والمناسب إعادة ذلك ذهبًا صِرْفًا كما كان، وأن رخام الحِجْر ـ بسكون الجيم ـ قد تكسّر ويحتاج إلى التجديد، وأن بَلاَط المَطَاف حول الكعبة الشريفة لم يكن تامًا ويحتاج إلى أن يتمّ من جوانبها كلّها، وأن ذلك من أعظم القُرُبات وأكرم المثوبات، وقد رُفع ذلك إلى الديوان العزيز للمبادرة إلى انتهاز ذلك والأمر راجعٌ إلى آراء الخلافة الشريفة والسلام[1].

فلمّا أشرف على هذه المكاتبات كاتب الخليفة المعتضد يومئذ الوزير عبيد الله بن سلميان بن وهب الكاتب وكان من أهل الخير له قدم راسخ فى قصد الجميل وفعل الحسنات، ونيّة جميلة فى إحراز الأجر والمثوبات، بادر إلى عرض ذلك على أسماع الخليفة المعتضد وحسّن له اغتنام هذه الفرصة والمبادرة إليها وبذل المقدور فيها، فبرز أمر المعتضد إليه وإلى غلامه المؤمر بالحضرة بعمل ما رُفع إليه من ترميم الكعبة الشريفة والحِجْر والمَطاف والمسجد الحرام، وأن تُهْدَم دار الندوة وتُجْعَل مسجداً يلحق بالمسجد الحرام ويُوصَل به، وأن يحفر الوادى والمسيل والمَسْعَى وما حوله المسجد الحرام ويُعْمَق حفرها إلى أن يعود إلى حاله الأول، ويجرى ماء السيل فيه ولا يدخل شيء منه إلى المسجد الحرام فينصان المسجد بذلك من دخول السيول إليه، وأن يُحْكَم ذلك غاية الإحكام ويُعَمّر ما تجب عمارته على وجه الإتقان والاستحكام[2].

وأمر أن يَحْمل من خزانته مالاً عظيمًا لهذا العمل، وأمر قاضى بغداد يومئذ وهو القاضى يوسف بن يعقوب أن يرتب ذلك ويجهّز لعمله من يعتمد

(١) الأزرقى ٢/ ٢١١.

(٢) الأزرقى ٢/ ١١٢.

عليه، وأمر بحمل المال إليه، فجهّز بعضه نَقْدًا فى أيام الحجّ مع ولده أبى بكر عبد الله بن يوسف وكان مقدَّمًا على حوائج الخلافة ومَصَالح طريق الحج وعمارتها، وأرسل بباقى المال سفاتج[1] سلّمها إلى ولده المذكور ليتسلّمها ممّن كتب اسمه من تلك السفاتج بمكّة، وعيّن معه لهذه الخدمة رجلاً يقال له أبو الهياج عميرة بن حيّان الأسدى، له أمانة وحسن رأى ونيّة جميلة وسيرة حسنة[2].

فَوَصَلاَ إلى مكة المشرفة فى موسم حجّ سنة إحدى وثمانين ومائتين فحلّى بالذهب الخالص باب الكعبة الشريفة، وحجّ وتخلّف بعد الحجّ بمكة أبو الهياج المذكور ومن معه من العُمَّال والأعوان وعاد عبد الله بن القاضى يوسف مع الحجّاج إلى بغداد ليُرْسل إليه ما يحتاج إليه من بغداد لتكميل ما أمر به من العمارة المذكورة، فشرع أبو الهياج فى حفر الوادى وما حول المسجد الحرام فحفره حفرًا جيّدًا حتى ظهر من درج المسجد الحرام الشارعة على الوادى اثنتا عشرة درجة، وإنما كان الظاهر منها خمس درجات، فحفرت الأرض ورُمى بترابها خارج مكة، ونُظفت دار الندوة من القمائم والأتربة، وهُدِّمت وحُفر أساسها وبُنيت وجُعلت مسجدًا، وأدخلت فيها أبواب المسجد التى كانت شارعة قبل هذا البناء، ثم فتح لها من جدار المسجد الكبير ستّة أبواب كبار، سعة كلّ باب خمسة أذرع، ارتفاع كلّ باب من الأرض إلى جهة السماء أحد عشر ذراعًا، وجعل بين الأبواب الكبار ستّة أبواب صغار ارتفاع كلّ باب ثمانية أذرع، وسعة كلّ باب ذراعان ونصف، وجعل فى هذه الزيادة بابان بطاقَيْن شارعين إلى الخارج فى جانبها الشمالى وباب بطاق واحد فى جانبها الغربى، وأقيمت أرْوقتها وسقوفها من جوانبها الأربعة، ورُكبت سقوفها على أساطينها، وسُوّيت سقوفها بخشب

(١) سفاتج: يقال سَفْتَجَ بالنقد أى عمل سفتجة؛ وهى أن يعطى آخر مالاً ولهذا الآخر مال فى بلد المعطى فيوفيه إياه هناك، فيستفيد أمن الطريق. والجمع سفاتج وسفاتيج، واللفظ فارسى معرب.

(٢) الأزرقى ٢/ ١١٢.

الساج وجعل لها منارة، وفرغ من عمارتها فى ثلاث سنين، ولعلّ إكمالها فى سنة أربع وثمانين ومائتين[١].

إلاّ أنها ما استمرّت على هذه الهيئة، بل غُيّرت بعد قليل إلى وضع آخر، أحسن منه بعد المعتضد المذكور، قال محمد بن إسحاق الفاكهى فى تاريخ مكة: إن أبا الحسن محمّد بن نافع الخُزاعى ذكر فى تعليق له أن قاضى مكة محمّد بن موسى القاضى، لمّا كان إليه أمر البلد، جدّد بناء زيادة دار الندوة، وغيّر الطاقات التى كانت فتحت فى جدار المسجد الكبير، وجعلها متساوية واسعة، بحيث صار كلّ من فى زيادة دار الندوة من مصلّ ومعتكف وجالس يمكنه مشاهدة البيت الشريف، وجعل أساطينها حجرًا مدوَّرًا منحوتًا، وركب عليها سقوفًا من الخشب الساج منقوشًا مزخرفًا وعقودًا مبنيّة بالآجر والجصّ، ووصل هذه الزيادة بالمسجد الكبير وصلاً أحسن من الأول، وجدّد شرفاتها وبيّضها، وأنه عمل ذلك فى سنة ستّ وثلاثمائة[٢]. انتهى.

ولقد كان ابتداء عمارة هذه الزيادة الكبرى مَأثرة عظيمة، ومَنْقَبة كريمة، أتى بها المعتضد بالله، وأثرًا باقيًا له على صفحات هذا الدهر ما فاز بها سواه، وفعل الخير لا يزال يُذْكَر، وصاحبُهُ يُمْدَحُ بألْسنة الخلق ويُشْكر، وقد بُلى عظامه تحت التراب الأغفر، فما مات من يُذْكَر بالجميل بعد أن يُقْبَر، وما عاش من عاش بالسّوء حين يُذْكر.

ما عاش من عاش مذمومًا خصائله ولم يَمُتْ من يكُنْ بالخير مذكورا

واستمرّت تلك الأساطين المنحوتة من الأحجار السود، عليها أسقف الساج المزخرف المنضود، مشيدة باقية إلى أن أدركناها فى عصرنا، ثم بدّلت بالأساطين المنحوتة من الرخام الأبيض المرمر ما بينها لتوثيقها أساطين منحوتة من الشميسى الأصْفَر، بعُقود محكمة أزين من عقود الجوهر، وجعل عوض السقف الذى يَبْلَى خشبُهُ كلّ حين، قُبّبًا مرفوعة نزهة للناظرين، فى

(١) الأزرقى ٢/ ١١٢.

(٢) شفاء الغرام ١/ ٣٦٤.

غاية الإتقان والتزيين، فى زمان سلطاننا الأعظم ودولة خاقاننا الأفخم الأكرم، سلطان سلاطين الزمان، السلطان مُراد خان، ابن سليم خان بن سليمان خان بن عثمان، خلّد الله تعالى سلطانه، وأفاض على العالمين برّه وإحسانه.

رجعنا إلى ما كنّا فيه من أخبار المعتضد العبّاسى، وما وقع له من الباس الذى ليس منه آسى، ولمّا أن عَضَّدَ المعتضد عضد الموت العاضد، وقطع عرق حياته مَباضِع الزمان الحاسد، وما حَمَتْه عن الحِمام قوّتُه، ولا منعَتْه عنه منعتُه ولا هيبتُه، فأنزلَتْه يد المنايا من سرير الخلافة والمُلك، وأركبَتْه سرير الآلة الحدباء إلى شفير حفير الفناء والهُلك، ودفَنَتْه فى تربة عمله الصالح، وسقَتْ ثراه بما طاب من ثنائه الفائح.

ومن أغرب ما حكاه المسعودى ـ رحمه الله ـ عن المعتضد فى وفاته، أنه اعتلّ من إفراطه فى كثرة الجماع، وطالت علّته وغشى عليه، فشكّ مَنْ حوله فى موته وكان لا يَجْسُر عليه أحدٌ لشدّة هيبته، فتقدّم إليه الطبيب يختبره بجسّ نبضه ففتح عينَيْه وفطن لذلك فرفس الطبيب برجله رفسة فدحاه أذرعًا، فمات الطبيب، ثم مات المعتضد من ساعته، وكانت وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين وخلف من الأولاد أربعة ذكور، وإحدى عشرة بنتًا، وكانت مدّة ملك المعتضد تسع سنين وتسعة أشهر ونصف رحمه الله[1].

• فصل:

لما اشتدّ المرض بالمعتضد جعل ولىّ عهده من بعده ولده أبا محمّد عليًا ولقّبه المكتفى بالله[2] وأخذ له البيعة قبل موته بثلاثة أيام، فلما توفّى المعتضد ـ رحمه الله تعالى ـ كان المكتفى غائبًا بالرَّقّة فنهض بأعباء البيعة له الوزير

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٣٢، ٤٣٥.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤٣٧.

أبو الحسين[١] القاسم بن عبد الله، وكتب إليه، فوصل إلى بغداد من الرّقة فى سابع جمادى الأولى، وكان يوم وصوله يومًا مشهودًا، زينَتْ له بغداد، ونزل دار الخلافة، وخلع على الوزير المذكور سبع خلع عظيمة، ومدحه الشعراء وأنعم عليهم بالجوائز السَّنِيَّة، وكان مولده فى غرّة ربيع الأول سنة أربع وستين ومائتين، وأُمُّه أُمُّ ولد تركيّة اسمها چچَك، وكان مليح الصورة يُضْرَب بحُسْنه المثل.

وقال فيه القائل يَصِفُ الدنيا:

ميّزت بين جمالها وفعالها ... فإذا الملاحة بالقباحة لا تَفِى

والله لا أختارها ولو انها ... كالبدر أو كالشمس أو كالمُكْتَفِى[٢]

وكانت سيرته حسنة، وأفعاله حميدة، فأحبّه الناس وفرحوا بخلافته ودعوا له.

وذكر عبد الغافر فى تاريخ نيسابور عن ابن أبى الدُّنْيَا وكان مُعَلِّمًا للمكتفى قبل أن يلى الخلافة، قال: فلمّا أفضت الخلافة إلى المكتفى كتب إليه هَذَين البيتَيْن:

إن حقَّ التأديب حقُّ الأُبُوَّهْ ... عند أهل الحِجَى وأهل المُرُوَّهْ

وأحقُّ الرجال أن يحفظوا ذا ... ك ويَرْعَوْه أهل بيت النُّبُوَّهْ[٣]

انتهى.

ومن أعظم الحوادث فى أيامه: ظهور القَرَامطة الملحدين، بل الكفرة المفسدين، أعداء الدين، فأوّل من خرج منهم يحيى بن مهرويه القرمطى، ومحلُّ خروجهم ودار ملكهم هَجَرُ، وهم طائفة إباحيّة يستحلّون دماء الحُجَّاج والمسلمين، يَدَّعون أن الإمام الحقَّ بعد النبىّ ﷺ محمد بن الحنفية

(١) لدى السيوطى «أبو الحسن».

(٢) الخبر والشعر لدى السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص٤٣٧.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٤٣٩.

ابن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وينتسبون إليه بالباطل ويسندون إليه أقاويل باطلة لا أَصْلَ لها، ويُكَفّرون من عَدَاهم وهم الكفرة الفجرة قاتلهم الله تعالى[١].

ولّما ظهر بالخروج يحيى المذكور جهز عليه المكتفى بالله جيوشًا، واستمر القتال بينه وبين عساكر الخليفة إلى أن قُتل وسِيقَ إلى جهنّم وبئس المَصِيرُ.

فقام بعده أخوه الحُسين، وأظهر شامة بوجهه الأسود، وزعم أنها آيته[٢].

وظهر ابن عمه عيسى بن مهرويه وتلَّقب بالمدثّر، وزعم أنه المراد بالسورة الشريفة، ولقّب غلامًا له مظلمًا بالمُطَوَّق بالنور، تسمّى أمير المؤمنين، وزعم أنه المهدى ودعا لنفسه على المنابر وأفسد بالشام وعاث فيها فحوربوا وقُتل الثلاثة وحُزَّتْ رءوسهم وطِيفَ بها فى البلاد سنة إحدى وتسعين[٣].

وخلف من بعدهم خلفٌ ظهرت منهم مفاسدُ سيأتى ذكرها استطرادًا وتَعِبَ المسلمون كثيرًا فى أمرهم إلى أن خذلهم الله تعالى، وسنذكر ذلك قريبًا إن شاء الله تعالى.

ولم يطل زمان المكتفى بالله وكانت مدّة ملكه ستة أعوام ونصف، ولّما مرض مرض الموت، وتيقّن بالفَناء الفَوْت، سأل عن أخيه أبى الفضل جعفر بن المعتضد فقيل له: إنه احتلم، واتّضح ذلك عنده، فجعله ولىّ عهده ولقّبه المقتدر بالله.

وبويع له على أن يكون الخليفة بعده.

قال الصولى رحمه الله: سمعت المكتفى يقول فى علّته التى مات فيها: والله ما آسى إلا على سبعمائة ألف دينار صرفتها من بيت مال المسلمين فى أبنية وعمارات لا أحتاج إليها[٤].

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٣٨.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٣٨.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٤٣٨.
(٤) تاريخ الخلفاء ص٤٣٨.

وذكر أبو منصور الثعالبى، قال حكى إبراهيم بن نوح أن الذى خلفه المكتفى ممّا جمعه هو وأبوه لا غير مائة ألف ألف دينار ما بين عين وأمتعة وأوانى وعقارات، وكان من جملة الأمتعة ثلاث وسبعون ألف ثوب ديباج، فسبحان من بيده خزائن السموات والأرض له الملك وإليه ترجعون.

ولمّا جاءه الأجل المحتوم المقدّر، وتلا لسان حاله: إن أجلَ الله إذا جاء لا يُؤَخَّر، انقصف غُصن شبابه القشيب، ويَبِسَ عُود جماله النَّضر الرطيب، وصار بدر كماله مخسوفًا، وعاد نور مُحَيَّاهُ المشرق بالجمال مظلمًا مكسوفًا، فانتقل من دار الفناء، إلى دار الجزاء والبقاء، فى ليلة الأحد لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ذى القعدة الحرام سنة خمس وتسعين ومائتين رحمه الله، وخلف ثمانية أولاد ذكور وثمانى بنات[١].

وولى بعده بالخلافة أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بالله[٢] بن المعتضد بالله ابن الموفق بالله بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد العبّاسى، بايعه الناس وعُمره ثلاث عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه. ذكره الجلال السيوطى[٣].

وأُمُّه أُمُّ ولد تسمّى شغب[٤] وولى الخلافة ثلاث مرّات هذه الأولى منها ولم يتمّ له فيها أمرٌ لصغر سنِّه، فتغلّب الجند عليه واتّفقوا على خلعه فخلعوه وعقدوا البيعة لأبى العبّاس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ولّقبوه الغالب بالله وبايعوه لعشر بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين، واستمرّ خليفة ساعة من ذلك النهار.

وعبد الله بن المعتزّ لقصر زمان خلافته لا ينبغى عَدُّه من الخلفاء ولكن نذكره لفضله وأدبه وهو أشعر بنى العبّاس بل أشعر بنى هاشم على الإطلاق

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٣٨.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤٤١.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٤٤١.

(٤) تحرف فى الأصلين إلى «شُعَيْب» وصوابه من تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٤٤١، والإنباء فى تاريخ الخلفاء ص١٥٣، وخلاصة الذهب المسبوك ص٢٣٩.

وأكثرهم فضلاً وأدبًا ودخولاً ومعرفة بعلم الموسيقى وأشعر الشعراء مطلقًا فى التشبيهات المبتكرة الغريبة المخترعة المرقصة التى لا يشقّ غباره فيها أحدٌ، مولده فى شعبان سنة تسع وأربعين ومائتين قال المعافى بن زكريّاء: لمّا بويع لابن المعتزّ دخلتُ على شيخنا محمد بن جرير الطبرى العالم الكبير المفسّر المحدّث المؤرّخ رحمه الله تعالى، فقال لى: ما الخبر؟ فقلتُ: بويع بالخلافة لعبد الله بن المعتزّ، قال: فمن توشّح لوزارته؟ فقلت: محمد بن داود، قال: فمن قاضيه؟ قلت: أبو المثنّى، فأطرق قليلاً ثم قال: هذا أمرٌ لا يتمّ، فقلت: ولم لا يتم؟ قال: كلّ واحد ممّن ذكرَت ذو شأن عظيم متقدّم فى علمه وفضله وعقله، وإن الدنيا مُولية والزمان مُدبِّرٌ، ولا مناسبة لأحد ممّن ذكرتَ برياسة فى مثل هذا الزمان، وما أرى هذا العقد إلا إلى الانحلال والاضمحلال[1].

فقدّر الله تعالى أنهم خلعوه فى ذلك اليوم وتلاشى أمره، فإن عبد الله بن المعتز لما عُقِدَتْ له الخلافة، أرسل إلى المقتدر يأمره بإخلاء دار الخلافة وأن يذهب إلى دار محمد بن طاهر لينظر فى أمره، فلمّا جاء الرسول إلى المقتدر وبلّغه الرسالة، قال: ليس له عندى جوابٌ غير السيف ولبس السلاح وركب مع جماعة قليلة من خدمه وهم مستسلمون للقتل فى غاية الخوف والرعب، فهجموا على عبد الله بن المعتز فأهاله ذلك وألقى الله تعالى فى قلبه الرعب، فانهزم هو ووزيره وقاضيه وكلّ من فى ديوانه ظنًا أن خلف هؤلاء أعوانًا وأنصارًا، وقبض المقتدر على عبد الله بن المعتز وعلى بعض الأُمراء والفقهاء، وسلّمهم إلى مؤنس الخادم، وقتل منهم من أراد وحبس عبد الله ابن المعتز ثم أُخرج من الحبس ميتًا[2].

واستقام الأمر للمقتدر وهذه ولايته الثانية، فسار أحسن سيرة واستقام أمره بعد الاضمحلال، وطلعت شمس سعادته بعد الزوال، ولاح بدر فَلاحِه من

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٤١.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٤١.

أَوْج الكمال، والعزّة لله الكبير المتعال.

وحيث انجر الكلام إلى ذكر عبد الله بن المعتزّ فلا بأس بتنميق هذه العجالة، وتزويق هذه الرسالة، بذكر بعض أشعاره المستظرفة ليعلم البلغاء مرتبته فى البلاغة، واقتداره على الكلام، فنورد قصيدته فى الجلسة التى فاخر بها آل النبىّ ﷺ، ولا يخفى أن الإقدام على مثل ذلك يَدُلُّ على قوّة الطَّبع، فإن الادعاء لمثل هذا المطلب العالى من أمثاله ممجوجٌ فى الأسماع، منفور فى الطباع، فإذا أبرزه مع ذلك فى قالب مطبوع دلّ ذلك على قوَّة طَبْع الشاعر، كما قال شاعر عصره الأديب المفوّه ابن الرومى(١) رحمه الله تعالى:

فى زخرف القـول تزيينٌ لباطله ... والحقُّ قـد يعتريه سوء تغيير
تقول هـذا مجاج النحل تمدحـه ... وإن تعِـبْ قلتَ ذا قَىءُ الزنابير
مدحًا وذمًّا وما جاوزت حدَّهما ... سِحر البَيَان يُرى الظلماء كالنور

وهذا منتخب تلك القصيدة التى فاخر فيها بين قومه وبنى العبّاس وآل أبى طالب - رضى الله عنهم - فى الخلافة، وما أنصف فيما ادّعاه، ولكنه أتى بشعر بليغ فى معناه فقال(٢):

ألا مَنْ لِعَيْـنٍ وتَسْكَابِهـا ... تَشكّى القَذَى وبكاهـا بهـا
ترامت بنا حادثات الزمـا ... ن ترامِى القِسىّ بنشّابِهـا
ويا ربَّ أَلْسنـةٍ كالسيـو ... فِ تُقَطِّع أرقابَ أصحابِهـا
وكم دُهِى المَرْء من نفسه ... فمزّقـه حـدّ أنيابهـا
وإنْ فُرْصَة أمكنت فى العَـدُ ... وٍّ فلا تُبْد فعلك إلا بها
فإن لم تلج بابها مُسْرِعًا ... أتاك عَـدُوُّك من بابها
ومـا نافع نـدمٌ بعـدها ... وتأميل أخرى وأنَّى بها
وما ينتقص من شباب الرجا ... ل يُرَد فى نهاها وألبابها

(١) ديوانه ٣/ ١١٤٤.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ص١٤٧، فوات الوفيات ٢/ ٢٤١.

نَهَيّت بنى رحمى ناصحًا ... نصيحـــة برٍّ بأنسابهـا
وقد ركبوا بغيهم وارتقوا ... معـارج تهـوى بركَّابها
وراموا فرائس أُسْد الشَّرَى ... وقـد نشبت بين أنيابهـا
دَعُوا الأسد تفرس ثم أشبعوا ... بما تَفْضُلُ الأسـد فى غابها
قتلنا أُمَيَّـة فى دارهـا ... وكُنَّـا أحـقّ بأسلابهـا
ولمّا أبى الله أن تملكـوا ... نهضنـا إليهـا وقُمْنا بها
ونحن ورثنا ثيـاب النبى ... فكم تجـذبون بأهدابهـا
لكم رَحِمٌ يا بنى بنتـه ... ولكن بنوا العمّ أولى بهـا
فمَهْلاً بنى عمّنا إنّهـا ... عطيّـة ربٍّ حَبَـانا بها
وكانت تزلزل فى العـالمين ... فشدّت لدينا بأطْنابهـا
وأقسم أنكم تَعْلَمـون ... بأنّا لهـا خير أربابهـا

فردّ عليه شاعر زمانه وبليغ أوانه الصَّفِى الحِلىُّ بقوله(١):

ألا قُلْ لشرّ عبيـد الإلَه ... وطـاغى قريش وكذَّابهـا
أأنـت تفـاخر آل النبىّ ... وتجحدهـا حقّ أنسابهـا
بكُمْ بَاهَلَ المصطفى أم بهم ... فـردّ العـداة بأوْصابهـا
أعَنْكُم نفى الرجس أم عنهم ... لطُهْر النفـوس وألْبابهـا
أما الشربُ واللَّهْوُ من دأبكم ... وفَرْط العبـادة من دأبها
هم الصائمون هم القائمون ... هم العالمـون بآدابهـا
هم الزاهدون هم العابدون ... هم السـاجدون بِمحْرابها
هم قطب ملّة دين الإلَه ... ودَوْر الرحّى بأقطـابهـا
تقـول ورثنا ثياب النبىّ ... فكم تجـذبون بأهدابهـا

(١) فوات الوفيات ٢/ ٢٤٢.

وعندك لا تُورَث الأنبياء … فكيف حظيتم بأثوابها
أبوهم وصىٌّ نبىِّ الإلَه … وأهل الوصيّة أولى بها
أَجَدُّك يَرْضى بما قُلْتَه … ما كان يومًا بِمُرْتابها
وكان بصِفِّينَ من حِزْبهم … لحرب البُغاة وأَحْزابها
وصلّى مع الناس طول الحياة … وحَيْدَر فى صَدْر محرابها
فهَلاَّ تقمّصها جَدُّكم … وهل كان من بعض خُطَّابها
وإذ جُعِلَ الأَمْرُ شُورَى لهم … فهل كان من بعض أربابها
وقولك أنتم بنو بِنْتِه … ولكن بنو العمّ أولى بها
بنو البنت أيضًا بنو عمّه … وذلك أدنى لأنسابها
وقلت بأنكم القاتلون … أُسُود أميّة فى غابها
كذبتَ ولولا أبو مُسْلِم … لعَزَّت على جهد طلاّبها
وقد كان عبدًا لهم لا لكم … رأى عندكم قُرب أنسابها
وكنتم أسارَى بطون الحُبُوسِ … وقد شفكم لثم أعتابها
فأخرجكم وحباكم بها … وقمصكم فَضْل جِلْبابها
فجازيتموهُ بشرّ الجزا … لطَغْوَى النفوس وأعجابها
فدَعْ فى الخلافة فَضْل الخلاف … فَلَسْتَ ذلولاً لرُكَّابها
وما أنت والفحص عن شأنها … وما قمّصوك بأَثْوابها
وما ساوَرَتك سوى ساعة … فما كنت أهلاً لأَسْبابها
ودَعْ ذكر قوم رضوا بالكفاف … وجاءوا القناعة من بابها
عليك بلَهْوك بالغانيات … وخَلّ المعالى لأربابها
ووَصْفُ العذار وذات الخمار … ونَعْت العُقَار بأَلْقابها
فذلك شأنك لا شأنهم … وجرى الجياد بأحسابها

obeikandl.com

ومن السحر الحلال الذى عقده فى سلْك اللآلى، ورقَمَه بقلم البلاغة على صفائح الأيام والليالى، هذا المُوَشَّحُ الذى يصلح وشاحًا لكواكب الجَوْزاء، وإكليلاً على التاج المحلَّى بنجوم الثُّرَيَّا، سارت به الرُّكْبان، وتناقلته الرُّواة بألْسنة الأزمان، قوله(١):

أيّها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تَسْمَعِ

ونديم هِمْتُ فى غرّتِهِ

وبشرب الراح من راحتِـهِ

كلما استقيظ من سكْرَتِهِ

جَذَّبَ الزُّقَّ إليه واتكى(٢) وسقانى أربعًا فى أَرْبَعِ

ما لَعْينى عشيَتْ بالنظرِ

أنكرت بعدك ضَوْءَ القمرِ

وإذا ما شئتَ فاسمعْ خبرى

عشيَتْ عيناى من طول البُكا وبكى بَعْضِى على بَعْضِى مَعى

غُصْنُ بان مال من حيث التوَى

مات من يهواه من فَرْط الجَوَى

خَفَق الأحشاء موهون القُوَى

كلما فكر فى البين بكى ويحه يبكى لما لم يَقع

ليس لى صبرٌ ولا لى جلَدُ

يا لقومى عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكوَاى ممّا أَجِدُ

---

(١) ديوان ابن المعتز٢/ ١٥٩.

(٢) فى ل: «واشتكى» والمثبت من م، والديوان.

مثل حالى حقّها أن يُشْتكى كَمَدُ اليَأسِ وذُلُّ الطَّمَعِ
كَبِدى حَرَّى ودَمْعى يكفُ
يَذْرِفُ الدمع ولا يعترفُ
أيّها المُعرض عمّا أَصِفُ
قد نَمَا حُبّى بقَلْبى وزكا لا تَقُل فى الحُبّ أنى مُدَّعِى

ومن تشبيهاته الرائقة وأشعاره الفائقة قوله[١]:

ومقَرطقٍ يَسْعَى إلى الندماء بعقيقة فى درة بَيْضاء
والبدر فى أفق السماء كدِرْهم مُلْقَى على ياقوتة زَرْقاء

فى المثلث وهو معنى بديع[٢]:

خليلىّ طاب الراحُ من بعد طبخها وقد عُدْتُ بعد السُّكْر والعَوْد أَحْمَدُ
فهاتا عقاراً من قميص زُجاجة كياقوتة فى دُرَّة تَتَوَقَّدُ
يصوغ عليها الماء شُبَّاكَ فضّة لها حَلَقٌ بيضٌ تحلّ وتُعْقَدُ
وقتنى من نار الجحيم بنفسها وذلك من إحسانها ليس يُجْحَدُ

وله من التصانيف كتاب الزهر والرياض، وكتاب مفاكهات الإخوان، وكتاب الصيد والجوارح، وكتاب السرقات الشعرية، وكتاب أشعار الملوك، وكتاب طبقات الشعراء، وديوان شعره، وغير ذلك. ومن كلامه البلاغة البلوغ إلى المعنى، ولم يطل سَفَر الكلام[٣].

وأشعاره البليغة وتشبيهاته الغريبة كثيرة شهيرة لا نطوّل بها هذه العجالة.

ولمّا تقرّر أمر المقتدر فى التمكن والاقتدار، واستقرّت خلافته أتمّ استقرار، استوزر أبا الحسن على بن محمد بن الفُرات فسار أحسن سيرة، واستقرّ فى

(١) ابن خلكان ٣/ ٧٨، وديوان ابن المعتز ٢/ ١٧.
(٢) ابن خلكان ٣/ ٧٩، والديوان ٢/ ٩٢.
(٣) ابن خلكان ٣/ ٧٦.

الخلافة إلى سنة سبعة عشر وثلاثمائة، فخرج مؤنس الخادم على المقتدر فركب وركب معه الجيش والأمراء، وجاءوا إلى دار الخلافة فهرب خواصّ المقتدر من داره ونهبوا فَوْرًا دار الخلافة، فكان ممّا نهب ستمائة ألف دينار لأُمّ المقتدر، فأشهد المقتدر على نفسه بالخلع لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمان عشرة ثلاثمائة، وأحضروا أبا منصور محمد بن المعتضد بن الموفق ابن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وبايعه مؤنس والأمراء ولقبوه القاهر بالله[1] وفوّضت الوزارة إلى الوزير أبى على بن مُقْلَة الكاتب المشهور، وجلس القاهر يوم السبت، وكتب الوزير ابن مقلة إلى سائر البلاد.

وعمل يوم الاثنين الديوان، فجاء العسكر يطلبون منه إنعام الجلوس، فارتفعت الأصوات فمنعهم الحاجب من الدخول إلى الخليفة، فقتلوا الحاجب ومالوا إلى دار مؤنس وأخرجوا المقتدر من الحبس وحملوه على أعناقهم إلى دار الخلافة فجلس على السرير، وأتو بأخيه محمد القاهر إليه وهو مقهور يبكى ويقول: الله الله يا أخى فى روحى فاستدناه المقتدر وقبّل بين عينى أخيه، وقال له: يا أخى لا ذنب لك، أنت مغلوب على أمرك والله لا ينالك منى مكروهٌ فَطِب نفسًا وقرَّ عَيْنًا، ولما زال رَوْعه آوى إليه أخاه قال: إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون، وبذل المقتدر الأموال للجند واسترضاهم وثبتت له الخلافة[2]، وهذه ثالث مرة والثالثة ثابتة، والله أعلم.

• فصل:

ومن جملة محاسن المقتدر أنه زاد فى المسجد الحرام زيادة باب إبراهيم، وهى الزيادة الثانية فى الجانب الغربى من المسجد الحرام، ويقال لها: زيادة باب إبراهيم، وليس المُراد به سيّدنا الخليل عليه وعلى نبيّنا وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه، بل كان إبراهيم هذا خَيَّاطًا يجلس عند هذا

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤٥١.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٤٦.

الباب دهراً فعُرف به، وكان قبل هذه الزيادة باب متّصل بأرْوقة المسجد الحرام بقرب باب الحَزْورَة ويقال له باب الخَيَّاطين، وبقربه باب ثان يقال له باب بنى جُمَحَ، وخارج هذين البابَيْن ساحة بين دارين لزُبَيْدَة أمّ الأمين بُنِيت فى سنة ثمان ومائتين، وما بقى لتلك الدارين أثرٌ الآن.

والذى يظهر أن دارَىْ زُبَيْدة كانت إحداهما فى الجانب الشامى فى مكان رباط الخُورى الآن، وكانت الأخرى تقابلها من الجانب اليمانى من تلك الزيادة وهى رباط رامشت الذى يعرف الآن برباط ناظر الخاصّ، فأُدخلت هذه الساحة التى بين الدارين فى المسجد الحرام وأُبطل البابان يعنى باب الخيّاطين وباب بنى جُمَحَ حيث دخلا فى المسجد الحرام، وجُعل عوض البابين باب كبير هو المُسمّى بباب إبراهيم فى غربىّ هذه الزيادة.

ذكر الحافظ نجم الدين عمر بن فَهْد رحمه الله فى حوادث سنة ست وثلاثمائة فى كتابه إتحاف الوَرَى بأخبار أُمّ القُرَى: وفيها زاد قاضى مكة يومئذٍ محمد بن موسى[1] فى الجانب الغربى قطعة عند باب الخيّاطين وباب بنى جُمَح وهى السُّوح الذى كان بين دارى زبيدة أمّ الأمين، وعمل ذلك مسجداً أَوْصَلَه بالمسجد الكبير، وطول هذه الزيادة من الأساطين التى فى وزان جُدر المسجد الحرام، إلى العتبة التى عليها باب إبراهيم سبعة وخمسون ذراعًا إلاَّ سُدْس ذراع، وعرض هذه الزيادة من جانبها الشامى إلى جانبها اليمانى وذلك من جدر رباط الخورى إلى جدر رباط رامشت اثنان وخمسون ذراعًا وربُع ذراع.

وفى هذه الزيادة فى جانبها الشرقى المتّصل بالمسجد الكبير صفان من الرواق على أساطين منحوتة من الحجارة وكذلك فى جانبها الشمالى، ولم يكن فى جانبها الغربى رواق وفى جانبها اليمانى سبيل ماء وسط رواقَيْه، وكانت لهذه الزيادة منارة ذكرها التقى الفاسى فى شفاء الغرام.

قُلْتُ: أمّا المنارة فلا أدرى من بناها ولا متى بُنيت ولا متى هُدمت، وأمّا

(١) إتحاف الورى ٢/٣٦٦.

السبيل فكان موجودًا إلى سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فهُدم عند وصول العمارة الشريفة السلطانية إليه، وأُعِيدَ بناؤه سبيلاً كما كان، وهذه الزيادة الثانية وقعت فى أيام المقتدر العبّاسى رحمه الله تعالى.

ومن جملة محاسن المقتدر أيضًا: أنه أبطل من ديوانه استخدام أهل الذمّة من اليهود والنصارى وأبطل تصرُّفهم فى الأموال السلطانية، وأعاد الأمر بتوريث ذوى الأرحام فى سائر ممالك الإسلام، وأَتْلَف كثيرًا من الأموال وأفرغ خزائن بيت المال وباع كثيرًا من الضياع حتى أرضى الجند بإكمال عطيتهم.

وكان يفرّق يوم عرفة كلّ عام من الإبل والبقر أربعين ألف رأس، ومن الغنم خمسين ألفًا، كذا ذكره الجمال يوسف بن تغرى بردى فى تاريخه مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة.

وقال أبو المحاسن يوسف سِبْطُ ابن الجَوْزى رحمه الله: وكان المقتدر يصرّف فى كلّ سنة فى طريق مكة والحرَمَيْن ثلاثمائة ألف دينار وخمسة عشر ألف دينار[1].

وقال الحافظ السيوطى: كان النساء غَلَبْنَ على المقتدر، فأخرج عليهن جميع جواهر الخلافة ونفائسها، وأعطى بعض حظاياه الدرّة اليتيمة، وكان وزنها ثلاثة مثاقيل، وأعطى زيدان القهرمانة سُبْحة جوهر لم يُرَ مثلها، وكان فى داره أحد عشر ألف غلام خصىّ غير الصقالبة والروم والسود، وكان مبلغ النفقة على بيمارستان أمّ المقتدر فى كلّ عام سبعة آلاف دينار، وأنه ختن خمسة من أولاده فصرف فى ختانهم ستمائة ألف دينار[2].

وقدمت رُسُلُ ملك الروم بهدايا لطلب الهُدْنة، فعمل المقتدر موكبًا عظيمًا لإرهاب العدوّ فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل سِمَاطَيْن من باب الشَّمَّاسية إلى دار الخلافة ببغداد تَمُرُّ الرُّسُلُ بينهما فى هذه المسافة،

(١) وقاله ابن الجوزى فى المنتظم ٦/٦٩، ٧٠، ٧١، ١٣٠.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٤٧.

وأقام بعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم، ثم الحُجَّاب وهم سبعمائة حاجب، وكانت الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج، وكانت البُسُط الفاخرة التى فُرشت فى الأرض اثنين وعشرين ألف بساط، وفى الحضرة مائة سَبُج فى سلاسل الذهب والفضة وغير ذلك[1].

وزاد الجمال يوسف بن تغرى بردى من جملة الزينة شجرة صِيغت وصُنِعَت من الذهب والفضّة والجواهر تشتمل على ثمانية عشر غُصْنا أوراقها من الذهب والفضة. وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة وعلى الأغصان طيور مصنوعة من ذهب وفضّة تتفتح الريح فيها فيسمع لكلّ طير صَدْحٌ مفرد وصفير خاصٌّ، وهذا بعد وَهْن الدولة العبّاسية وضعفها، فكيف كانت زينتُها فى أيام قوة دولتهم فى كمال وصفها.

فسبحان من لا يزول ولا يزال، ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال، ولا تغيّره السنون ولا تحوّله الأحوال، وهو الله الملك الكبير العظيم المتعال، له الملك وحده لا شريك له ولا ضدّ ولا ندّ ولا مثال، كوّن الأكوان وقدّرها تقديراً، ولم يتّخذ صاحبة ولا وزيراً، تعالى شأنُهُ وعلا سلطانه عُلُوّاً كبيراً، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

• فصل:

وأول ما ظهر من الوَهْن للخلافة فى أيام المقتدر ظهور الطائفة الملحدة التى تُسَمَّى القرامطة، لهم اعتقاد فاسد يُؤَدِّى إلى الكفر، يستبيحون دماء المسلمين وينتسبون إلى موالاة محمد بن الحنفية من أولاد سيّدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه، ويَرَوْنَ ضلال كافة المؤمنين، فأوّل نجس خبيث ظهر منهم أبو طاهر القرمطى وبَنَى داراً فى هَجَر سمّاها دار الهجرة، أراد نقل

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٤٤.

الحجّ إليها، لعنه الله تعالى وأخزاه، وكثر فتكه فى المسلمين وسفك دماء المؤمنين إلى أن اشتّد به الخطب وانقطع الحجّ فى أيامه خوفًا منه ومن طائفته الفاجرة واشتدّت شَوْكتهم، ففى أواخر عام سبعة عشر وثلاثمائة لم يشعر الحُجّاج يوم التروية بمكة إلا وقد وافاهم عدوٌّ الله أبو طاهر القرمطى فى عسكر جرّار، فدخلوا بخَيْلهم وسلاحهم إلى المسجد الحرام ووضعوا السيف فى الطائفين والمصلّين والمحرمين مجرّدين فى إحرامهم إلى أن قتلوا فى المسجد الحرام وفى مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألف إنسان، وتلك مُصيبة ما أُصِيبَ الإسلام بمثلها، وركض أبو طاهر بسيفه مشهوراً فى يده وهو سكران فصفر بفرسه عند البيت الشريف فراث وبال والحجّاج يطوفون حول بيت الله الحرام والسيوف تَنُوشهم، إلى أن قُتل فى المطاف الشريف ألف وسبعمائة طائف مُحْرم، ولم يقطع طوافه علىٌّ بن بابويه وجعل يقول وهو ينشد:

ترى المحبّين صَرْعَى فى ديارِهمُ … كِفتيَةِ الكَهْف لا يدرون كم لَبِثُوا

والسيوف تقفوه إلى أن سقط ميتًا رحمه الله، وطُمَّتْ بأشْلاء الشهداء بئر زمزم، وما بمكة من آبار وحُفَرٍ قد ملئت بهم، وطلع أبو طاهر إلى باب الكعبة وقلع بابها الشريف وصار يقول:

أنا بالله وبالله أنا … يَخْلُقُ الخَلْق وأفنيهم أنا(١)

وصاح فى الحُجّاج يا حَمِير أنتم تقولون ومن دخله كان آمنًا فأين الأمنُ وقد فعلنا ما فعلنا، فأخذ شخصٌ بلجام فرسه وقال وقد استشهد مستسلمًا للقتل، ليس معنى الآية الشريفة ما ذكرتَ، وإنما معناها ومن دخله فأمنوهُ فلَوَى أبو طاهر عنان فرسه عنه ولم يلتفت إليه وصانه الله تعالى ببركة بذل نفسه فى سبيل الله والردّ على ذلك الكافر أخزاه الله تعالى(٢).

وأراد قلع الميزاب وكان من ذهب فأطلع قرمطيًا يقلعه فأُصِيبَ بسَهْم من جبل أبى قُبيس فما أخطأ نحره وخَرَّ ميتًا، وأمر آخر مكانه فسقط من فوق

(١) إتحاف الورى ٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥، تاريخ الخلفاء ص٤٤٥.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ٣٧٥.

إلى أسفل على رأسه فهاب الثالث على الإقدام على القلع، فمضى أبو طاهر وتركه على رغم أنفه وقال اتركوه حتى يأتى صاحبُهُ يعنى المهدى الذى يزعم أنه يخرج منهم[١].

وكان ممّن قُتل بمكة أميرها ابن محارب والحافظ أبو الفضل محمد بن الحسين بن أحمد الجارودى الهَرَوى أخذته السيوف وهو متعلّق بيَدَيْه بحلقة باب الكعبة حتى سقط رأسه على عتبة باب بيت الله تعالى، وأخوه إمام الفقهاء الحنفية الفقيه أبو سعيد أحمد بن الحسين البَرْدَعى والشيخ أبو بكر بن عبد الرحمن بن عبد الله الرُّهاوى، وشيخ الصوفية على بن بابويه الصوفى، والشيخ محمد بن خالد بن زيد البردعى نزيل مكة[٢].

وجماعة كثيرون من العلماء والصلحاء والصوفية والحُجَّاج من أهل خراسان والمغاربة.

ونُهبت أموالهم وسُبيت نساؤهم وذراريهم ونُهبت دور الناس، وقُتل من وُجد من أهلها إلا من اختفى فى الجبال، وممّن هرب من مكة يومئذ: قاضيها يحيى بن عبد الرحمن بن هارون القرشى مع عياله إلى وادى رَهْجان، ونَهَبتَ القرامطة من داره وأثاثه وأمواله ما قيمتُه مائة ألف دينار فافتقر بعد تلك الثَّروة، وكذلك نُهبت دور أهل مكة إلى أن صار الباقى ممّن نجا من تلك الواقعة فُقراء يستعطون، ولم يحجّ فى هذا العام أحد ولا وقف بعَرَفَةَ إلا عدد يسير فارّوا بأنفسهم وسمحوا بأرواحهم فوقفوا بدون إمام وأتمّوا حجَّهم مستسلمين للموت[٣].

وأخذ أبو طاهر خزانة الكعبة وما فيها من الذهب والفضّة وكسوة الكعبة وحُلِيَّها وما نهبه من أموال الحُجَّاج فقسمها بين أصحابه[٤].

---

(١) إتحاف الورى ٢/ ٣٧٧.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ٣٧٦.

(٣) إتحاف الورى ٢/ ٣٧٩.

(٤) إتحاف الورى ٢/ ٣٧٧.

وأراد أخذ حجر المقام الذى فيه صورة قدم سيّدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه على نبيّنا وعليه وعلى سائر أنبياء الله تعالى ورُسُله فلم يظفر به لأن سدنة الكعبة أخفوه وغيّبوه فى بعض شعاب مكة، وتَألَّم لذلك فاستدعى بجعفر بن أبى علاج البنّاء وأمره بقلع الحجر الأسود من مكانه فقلَعه بعد العصر يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ذلك العام وصار بزَنْدَقته يقول قاتله الله تعالى ولعنه وأخزاه:

فلو كان هذا البيت لله ربنا ... لصَبَّ علينا النار من فوقنا صَبَّا
لأنا حججنا حجةً جاهليَـة ... محللة لم تبق شـرقًا ولا غَـرْبا
وإنا تركنا بين زمزم والصَّفَا ... جنائز لا تبغى سِوَى ربهـا ربًّا[1]

وقلع ذلك الكافر قبة زمزم وباب الكعبة وأقام بمكة أحد عشر يومًا وقيل ستّة أيام ثم انصرف إلى بلده هَجَرَ وحمل معه الحجر الأسود يريد أن يحوّل الحجَّ إلى مسجد الضرار الذى سمّاه دار الهجرة، وعلّقه فى الأسطوانة السابعة ممّا يلى صحن الجامع من الجانب الغربى من المسجد وبقى موضع الحجر الأسود من البيت الشريف خاليًا يَضَعُ الناس أيديهم فيه ويلثمونه تبرُّكًا بمحلّه[2].

وأمر هذا الفاجر أن يخطب لعبيد الله المهدى أوّل الخلفاء العُبَيْديّين الفاطميّين، وكان أول ظهوره فبلغ عبيدَ الله المذكور ذلك فكتب إليه إن أعجب العجب إرسالك بكتبك إلينا مُمْتَنًّا بما ارتكبتَ فى بلد الله الأمين من انتهاكك حُرمة بيت الله الحرام الذى لم يزل محترمًا فى الجاهلية والإسلام، وسفكتَ فيه دماء المسلمين وفتكت بالحُجَّاج والمعتمرين، ثم تعدّيت وتَجَرَّأتَ على بيت الله تعالى وقلعتَ الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده، وحملتَهُ إلى أرضك ورجوتَ أن أشكرك على ذلك فلعنك الله ثم لعنك الله، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وقدّم فى

(١) إتحاف الورى ٣٧٧ ـ ٣٧٨.
(٢) إتحاف الورى ٢/ ٣٧٨.

يومه ما ينجو به فى غده[١].

فلمّا وصل كتاب عبيد الله إلى أبى طاهر القرمطى وعلم ما فيه انحرف عن طاعته، واستمرّ الحجر عندهم أكثر من عشرين سنة يستجلبون به الناس إليهم طمعًا أن يتحوّل الحجُّ إلى بلدهم ويأبى الله ذلك والإسلام، وشريعة محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذه من أعظم مَصَائب الإسلام، وأشدّهن فى الدين من أولئك الفجرة اللئام، ذابت لها أكباد العباد، وعَمَّتْ فتنتها فى الحاضر والباد، إلى أن دمر اللهُ تعالى تلك الطائفة الفاجرة، وتمزّقت كل ممزق بيد الله القاهرة، وابتلى أبو طاهر النجس هذا بالآكلة، فصار يتناثر لحمُهُ بالدُّود، ومات أشقى ميتة إلى دار الخُلُود، وتعذب بأنواع البلاء فى الدُّنْيَا، ولعذابُ الآخرة أشدُّ وأبْقَى.

ولَمَا أَيِسَت القرامطة عن تحويل الحُجَّاج حجهم إلى هَجَرَ، ردُّوا الحجر الأسود إلى محلّه، وورد سَنْبَر بن الحسَن القرمطى إلى مكة فى يوم النحر يوم الثلاثاء عاشر ذى الحجّة الحرام سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ومعه الحجر الأسود، فلمّا صار بفناء الكعبة حضر معه أمير مكة يومئذ وهو ظنّاً أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز العبّاسى فأظهر سفطًا أخرج منه الحجر الأسود وعليه ضِبَابٌ من فضّة فى طوله وعرضه تضبط شُقُوقًا قد حدثت فيه بعد قلعه، وأحضر معه جصًا يشدُّه به فوضع حسن بن المرزوق البَنَّاء الحجر فى مكانه الذى قلع منه، وقيل بل وضعه سنبر بيده، وقال: أخذناه بقدرة الله تعالى وأعدناه بمشيئته، وقد أخذناه بأمر ورددناه بأمر، ونظر الناس إلى الحجر فقبّلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى[٢].

وحضر ذلك محمد بن نافع الخزاعى ونظر إلى الحجر الأسود، وتأمله فإذا السواد فى رأسه دون سائره وسائره أبيض[٣].

---

(١) إتحاف الورى ٢/ ٣٧٨.

(٢) إتحاف الورى ٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٣) إتحاف الورى ٢/ ٣٩٥.

وحضر معهم ممَّن حجّ تلك السنة محمد بن عبد الملك بن صفوان الأندلسى وشهد ردّ الحجر إلى مكانه، ولما أُعيد الحجر الأسودُ إلى مكة حُمِلَ على قَعُود هزيل فسَمِنَ وكان لمّا مضوا به مات تحته أربعون جملاً وكانت مدة استمراره عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام[١].

وكان المنصور بن القائم بن المهدى العبيدى راسل أحمد بن أبى سعيد القرمطى أخا أبى طاهر بخمسين ألف [دينار] ذهبًا فى الحجر الأسود ليردَّه فلم يفعل، وبذل بَجْكَم التركىُّ مدبّر الخلافة خمسين ألف دينار للقرامطة على ردّ الحجر الأسود فأبوا، وقالوا: أخذناه بأمر ولا نردُّه إلا بأمر[٢] إلى أن أراد الله تعالى ردَّه على الوجه الذى ذكرناه.

وفى التواريخ صُوَرٌ أُخْرى لهذه القصّة رأيناها متناقضة، وهذا أصحّ ما روى فيها فاعتمدنا عليه فعَضَّ عليه بالنواجذ.

ثم إن الحجبة خافوا على الحجر الأسود من استطالة يد خائن إليه لعدم استحكام بنائه، فقلعوه وجعلوه فى البيت الشريف حفظًا له وصونًا عمّن أراده بسُوء، ثم أمروا صائغَيْن فصَنَعَا له طوقًا من فضَة وزنه ثلاثة آلاف وسبعة وثلاثون درهمًا، فطوّقوا به الحجر وشدّوا عليه به وأَحْكَمَا بناءه فى محله كما كان ذلك قديمًا[٣]، وكما هو الآن أيضًا كذلك.

وكان قلع الحجر الأسود فى أيام المقتدر، ثم وقع بينه وبين مؤنس حربٌ فتوغّل فى المعركة فضربه واحد من البربر من خلفه فسقط إلى الأرض فقال لضاربه: ويحك: أنا الخليفة، فقال له: أنت المطلوب وذبحه بالسيف ورفع رأسه على الرمح وسلب ما عليه وبقى مكشوف العورة حتى ستُر بالحشيش، ثم حُفِرَ له مكان ودُفن به وعُفِىَ أثرُهُ، فسبحان المعزّ السميع البصير، له الملك وحده لا شريك له وهو على كل شىء قدير[٤].

(١) إتحاف الورى ٢/ ٣٩٥.

(٢) إتحاف الورى ٣٩٥ ـ ٣٩٦ وما بين حاصرتين منه.

(٣) إتحاف الورى ٢/ ٣٩٦.

(٤) تاريخ الخلفاء ص٤٤٧.

وكانت مدّة خلافة المقتدر أولاً وثانيًا وثالثًا خمسًا وعشرين سنة إلا أيامًا ، وقُتل لثمان بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة.

وولى آخوه مكانه أبو منصور محمد بن المعتضد ولقب القاهر بالله[١] وقُهِرَ القاهر المذكور وسُمِلَت عيناه، وجاءوا بأبى العبّاس محمد بن المقتدر بالله بن المعتضد ولقبوه الراضى بالله[٢] وبايعوه فى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وصار خليفة إلى أن مات فى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة[٣].

وبويع لأخيه أبى إسحاق إبراهيم بن المقتدر بعده ولُقب المتقى لله[٤]، وقَبَضَ عليه توزون التركىُّ وسَمَل عينَيْه فى صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة[٥].

وبويع بعده لابن عمّه أبى القاسم عبد الله بن المكتفى بالله بن المعتضد ولُقّب المستكفى بالله[٦]، واستمر فى خلافته سنة واحدة، وأَمْسَكَه من أمرائه معز الدولة بن بويه فسمل عينيه وضمّه إلى المتقى بالله والقاهر بالله وصاروا ثلاثة أثافى العَمَى.

وولى الخلافة أبو القاسم الفضل بن المقتدر ولقب المطيع لله[٧]، وبويع له بالخلافة فى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وكان ردّ الحجر الأسود من بلاد هجر إلى مكانه من البيت الشريف فى أيام المطيع لله هذا، وتمّ أمرُه على ضعف الخلافة ووَهْنها، واستيلاء بنى بُوَيْه على الملك، وطالت أيامه إلى أن خلع نفسه رحمه الله.

وبويع لولده أبى بكر عبد الكريم فى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ولقب

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤٥١.
(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤٥٥.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٤٥٥، ٤٥٧.
(٤) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤٥٩.
(٥) تاريخ الخلفاء ص٤٦٠.
(٦) تاريخ الخلفاء ص٤٦٣.
(٧) تاريخ الخلفاء ص٤٦٥.

الطائع لله[١]، وكان مغلوبًا عليه من قبل أمرائه، وما كان له إلا العظمة ظاهرة لا غير، بحيث لمّا ورد فى سنة تسع وستين وثلاثمائة رسول العزيز بالله بن المعزّ العُبَيْدى صاحب مصر إلى بغداد، سأل عضد الدولة بن بويه وهو يومئذ ملقّب بالسلطنة من الطائع وبيده أمر المملكة، أن يزيد فى ألْقابه ويقال له: تاج المِلَّة، ويجدّد عليه الخلع ويلبسه التاج فأجابه إلى ذلك، فجلس الطائع على سرير عالٍ وأوقف حوله مائة سيف مسلول وبين يَدَيه مصحف عثمان رضى الله عنه وعلى كتفه بُرْدة النبى ﷺ وبيده قضيب النبى ﷺ وهو مقلد بسَيْف النبى ﷺ، وكان ذلك جميعه ممّا يتوارثه الخلفاء ويجعلونه لمواكبهم العامة، واحتجب بستارة عالية حتى لا يقع عليه نظر الجند قبل رفع الستارة، وحضر الجند من الأتراك والديلم ووقفوا أرباب المراتب صفَّيْن، ثم أذن لعضد الدولة فدخل ثم رُفعت الستارة وقبّل الأرض، وأدخل رسول العزيز صاحب مصر فارتاع وأهاله ما رأى ، وقال لعضد الدولة: أهذا هو الله تعالى؟ فقال له: هذا خليفة الله فى أرضه، ثم استمر يمشى ويقبّل الأرض سبع مرّات فالتفت الطائع إلى خادمه المقرب عنده واسمه خالص وقال له استدنه فقرّبه إلى رجل السرير وقبل رجله فثنى الطائع يمينه على رأس عضد الدولة، وأمره أن يجلس على كرسى وُضِعَ له قريبًا من السرير، فاستعفى عضد الدولة من ذلك، فأقسم عليه ليجلس فقبل الكرسى ثم جلس عليه، فلما استقر جالسًا قال له الطائع: قد فوضت إليك ما وكل الله تعالى إلىّ من أمور الرعيّة فى شرق الأرض وغربها، فقال: يُعيننى الله تعالى على طاعة أمير المؤمنين، وقبل الأرض فأمر أن يفاض عليه سبع خلع فأفيضت عليه وهو يقبل الأرض فى كل واحدة، وانصرف وانصرف الناس خلفه، وقد أهالهم ما رأوه واستعظموا ما شاهدوه[٢].

وما كانت هذه العظمة إلا صورة صناعية وكلفة اصطناعية حقيقتها واهية،

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء ص٤٧٤.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٧٤، ٤٧٦.

وقوّتها واهنة، فإن السلطنة لَمّا آلت إلى أبى نصر بن بويه، ركب الطائع إليه وخلع عليه سبع خلع وطوّقه بطوق مجوهر وسوّره بسوارين ولقبه بَهاء الدولة وضياء المِلَّة فى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة(١).

ثم فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة جاء بهاء الدولة إلى الطائع وقبّل الأرض بين يديه، وجلس على الكرسى وأمر خدامه من الديلم فجذبوا الطائع من سريره ولفّوه فى كساء وأمره بهاء الدولة أن يخلع نفسه ففعل(٢).

وأتى بأبى العبّاس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ولقّبه القادر بالله(٣)، وبويع له بالخلافة لعشر مضين من شهر رمضان فى ذلك العام، وكان على غاية من العبادة والديانة والفضل، وصنّف كتابًا فى الردّ على القائلين بخلق القرآن، وأمر أن يقرأ فى كل جُمعة فى حلق أصحاب الحديث بحضرة الناس، وعَدَّه ابن الصلاح فى علماء الشافعية وذكره فى طبقاته(٤).

وطالت مدّة خلافته حتى أنافت على إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة.

وولى بعده بعهد منه ولده أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله ولقب القائم بأمر الله(٥)، وكان خيرًا دينًا باهر الفضل، إلا أنه مغلوب بيد أمرائه، وطالت مدّته مع ذلك، وكانت خلافته خمسًا وأربعين سنة، ووفاته فى شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة(٦).

وتولّى بعده بعهد منه حفيده أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله ولقب المقتدى [بأمر] الله بويع له بالخلافة يوم وفاة جدّه بحضرة الإمام الكبير والولىّ الشهير مولانا أبى إسحاق الشيرازى أحد أركان أئمة الشافعى

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٧٨.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٧٨.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٤٧٩.
(٤) طبقات ابن الصلاح ١/ ٣٢٤.
(٥) تاريخ الخلفاء ص٤٨٥.
(٦) تاريخ الخلفاء ص٤٩٠.

رضى الله عنه[١].

وكان دينًا خيّرًا من نجباء خلفاء بنى العبّاس وصالحيهم، ومن جملة صلاحه وبركته أن السلطان مكلشاه من آل سُبُكْتكين قصد أن يتحكّم عليه ويظهر الجَنَف والحَيْف على الخليفة المذكور، فأرسل إليه وهو يقول له: لا بُدَّ أن تترك لى بغداد وتذهب إلى أى بلد شئتَ، فأرسل الخليفة إليه يتلطّف به فى ذلك فأبَى إلا شدَّة وغلظًا، فقال لرسوله: اسأله المُهْلَةَ لى ولو شهرًا، فأبى وقال: ولا ساعة، فأرسل إلى وزيره فاستمهله عشرة أيام، فأمهله فصار الخليفة يصوم بالنهار ويقوم بالليل ويتضرّع إلى الله تعالى ويضع خدّه على التراب ويناجى ربّ الأرباب ويدعو على ملكشاه فنفذ دُعاءه وهو مظلوم، نفوذ السهم المسموم، فى كبد الظلوم، واستجاب الله دُعاءه، وتقبّل ضَرَاعته، فهلك السلطان ملكشاه قبل مُضِىّ عشرة أيام[٢]، وكفاه الله تعالى شرّه وما ربك بظلاّم، وعُدَّت هذه كرامة للخليفة المقتدى، وهذه عُقْبَى كلّ ظالم معتدى، فرحم الله من قال:

وكم لله من لُطْفٍ خفىّ ... يدقّ خفاه عن فهم الذكىّ
وكم فرج أتى من بعد عُسْرٍ ... وفَرج كربة القلب الشجىّ
وكم هَمٍّ تساء به صباحًا ... فتأتيك المسرّة بالعشىّ
إذا ضاقت بك الأحوال يومًا ... فثِقْ بالواحد الفرد العلىّ
تَمَسَّكْ بالنبىّ فكلّ هَمٍّ ... يزول إذا تُمَسِّك بالنبىّ

وكذلك من قال:

لا تشتغل بهموم القلب مُكْتَئِبًا ... ولا تبيتنّ إلا خَالِىَ البالِ
ما بين غُمْضة عينٍ وانتباهتها ... يغيّر الدهر من حال إلى حالِ

وكانت وفاة الخليفة المقتدى بالله فى محرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٩١، وما بين حاصرتين منه.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٩٢.

وتولّى بعده ابنه أبو العبّاس أحمد ولقب المستظهر بالله، وبويع بالخلافة يوم مات أبوه، وكانت أُمُّه أُمَّ ولد تركية اسمها ألطون[١]، وكان كريم الأخلاق حسن الخطّ لا يقاومه أحدٌ فى كتابته، حافظًا للقرآن، عالمًا فاضلاً، وكان قد غلب عليه ملوك آل سَلْجوق، وكانت مدة خلافته أربعًا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وتوفى يوم الأربعاء لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة[٢].

وولى بعده ولده أبو منصور الفَضْل بن المستظهر ولقّب المسترشد بالله[٣]، وبويع له بالخلافة يوم مات والده، وأُمُّه أُمُّ ولد تسمّى لُبابة، وكان شجاعًا دينًا مشغولاً بالعبادة، حفظ القرآن والحديث ونظم الشعر[٤] ومن شعره:

أنا الأشقر[٥] الموعودُ[٦] بى فى الملاحِمِ
ومن يملك الدنيا بغير مُزَاحِم

وكان هذا التخيّل من خيالاته الفاسدة، فإنه ما ملك من الدنيا ولا فناء داره، وخرج إلى قتال مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى فلم يقاتله معه أحد، فقاتله وحده إلى أن قُتل فى ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة رحمه الله[٧].

وتولّى بعده ابنه أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله ولقّب الراشد بالله[٨] وبويع له بالخلافة يوم قتل أبوه رحمه الله، ولم تطلْ مدّته بل قبض عليه السلطان مسعود السلجوقى وخلعه من الخلافة فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة

(١) فى خلاصة الذهب المسبوك ص٢٧٠: «كلبهار».
(٢) تاريخ الخلفاء ص٤٩٤، ٤٩٨.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٥٠٠.
(٤) خلاصة الذهب المسبوك ص٢٧٢.
(٥) كذا فى «م» ومثله لدى السيوطى وفى «ل» (الأشقى).
(٦) كذا فى الأصلين ولدى السيوطى (المدعو).
(٧) تاريخ الخلفاء ص٥٠١، ٥٠٢.
(٨) تاريخ الخلفاء ص٥٠٥.

ليلة بقيت من ذى القعدة الحرام سنة ثلاثين وخمسمائة، وحبسه وقتله فى حبسه.

وولى عمّه أبا عبد الله محمد بن المستظهر بالله ولقبه المقتفى بالله[١]، وبويع له يوم خلع ابن أخيه وكان عالمًا فاضلاً حسن السيرة دمث الأخلاق شجاعًا، توفى يوم الأحد لليلتَيْن خلتا من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة وتولّى بعده ولده أبو المظفّر يوسف بن المقتفى ولقّب المستنجد بالله، وبويع له يوم وفاة أبيه، وأُمُّه أُمُّ ولد حبشيّة اسمها طاوس[١].

ويحكى أنه قبل أن يصير خليفة رأى فى منامه أن ملكًا نزل من السماء فكتب فى كفّه خمس خاءات، فلما أصبح سأل بعض المعبّرين عن منامه فقال له: إنك تلى الخلافة فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان كذلك، توفى إلى رحمة الله تعالى فى يوم السبت لليلَتين خلتا من شهر ربيع الثانى سنة ست وستين وخمسمائة[٣].

وتولّى بعده ابنه أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله ولقب المستضىء بالله[٤] وبويع له يوم وفاة والده، وكان حسن السيرة كريم النفس، أسقط المكوس فى ممالكه وكثر ثناء الخلق عليه، وتوفى فى مستهل ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة[٥].

وتولّى بعده ابنه أبو العباس أحمد ولقّب الناصر لدين الله[٦]، وبويع له بالخلافة ثانى ذى القعدة وهو اليوم الثانى من وفاة والده.

وفى أيامه كان ظهور السلطان صلاح الدين بن أيّوب واستخلاصُه بيت المقدس من أيدى نصارى الإفرنج، واستيلاؤه على مصر وإزالة دولة

(١) تاريخ الخلفاء ص٥٠٧.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٥١٣.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٥١٤.
(٤) تاريخ الخلفاء ص٥١٧.
(٥) تاريخ الخلفاء ص٥٢٠.
(٦) تاريخ الخلفاء ص٥٢١.

الفاطميين عنها، وخطب لهذا الناصر العبّاسى على منابر مصر، ووقع بينه وبين السلطان صلاح الدين بن أيوب منافرة بسبب تلقُّبه بالناصر لدين الله فإن صلاح الدين تلقب به.

والفاطميون ويقال لهم: العبيديون، أربعة عشر خليفة، أوّلهم عبيد الله المهدى، واختلف المؤرّخون فى نسبهم، وهم منتسبون إلى فاطمة الزهراء رضوان الله عليها، وأنكر ذلك كثير من المؤرخين وطعنوا فيه بأنهم من أولاد الحسين بن محمد بن أحمد بن القدّاح، وقالوا: كان القداح المذكور مجوسيًا، وثانيهم المنصور، وثالثهم القائم، ورابعهم المعزّ وهو الذى انتقل من بلاد المغرب إلى مصر وملكها من الإخْشيديِّين وبَنَى القاهرة المعزية واستمرّ هو ومن بعده من العبيديين بمصر إلى أن كان آخرهم العاضد وهو الرابع عشر منهم، توفى فى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، وذلك بعد استيلاء صلاح الدين بن أيوب عليه وعلى مملكته، وخطب عل منابر مصر للناصر لدين الله وانقرضت دولة العبيديين وكانوا أرفاضًا سبّابين، منهم ملاحدة كالحاكم بأمر الله وتُحكى عنه كفريات عجيبة، وأكثر المؤرّخين على نفى شرفهم والله أعلم بحقيقة ذلك.

وطالت مدّة خلافة الناصر فأحْيا رسوم الخلافة وامتلأت القلوب من هيبته، وكان ذات فكرة صائبة وكانت أيامه من غرر الزمان وكان له إحسان إلى أهل الحرمَيْن الشريفين، وكانت الكعبة الشريفة تُكْسَى الديباج الأبيض فى زمن المأمون إلى آخر أيام الناصر فكساها الديباج الأسود[1]، واستمرّت إلى زماننا هذا تكسى الديباج الأسود.

ثم كساه الجام ثياب أكفانه، وعزله عن سرير مُلكه وتخت سلطانه، وأودعه بطون المقابر، وما له من قوّة ولا ناصر، وكانت وفاته فى سلخ شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة[2].

(١) تاريخ الخلفاء ص٥٢٩.

(٢) خلاصة الذهب المسبوك ص٢٨٢.

وتولّى مكانه بعد موته ولده أبو نصر محمد بن الناصر ولقب الظاهر بأمر الله[١]، وبويع له بالخلافة يوم مات والده بعهد منه إليه، فأظهر العدل والإحسان، وأبطل المكوس، وورث ذوى الأرحام، وكان العُمَّال يكيلون للديوان بكيل زايد على ما يكيلون به للناس، فأبطل الظاهر ذلك، وكتب إلى وزيره: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦]، فقال له الوزير: إن تَفَاوُت الكيل ينوف على ثلاثين ألف دينار، فقال: أَبْطِلْهُ ولو أنه ثلاثمائة ألف دينار[٢].

وفرّق ليلة عيد النحر على الفقراء مائة ألف دينار، فلامه الوزير على ذلك فقال: اتركنى أفعل الخير فإنى لا أدرى كم أعيش[٣]، فلم يلبث أن وفّاه الله بالكيل الأَوْفى، وأثابه على عمله الصالح ووَفَّى، فعاش حميدًا، ومضى سعيدًا، وتوفى فى رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة[٤].

وتولّى بعده ولده أبو جعفر منصور بن الظاهر ولقّب المستنصر بالله[٥]، وبويع له بالخلافة يوم وفاة والده، فنشر العدل وبذل الإنصاف، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والربط والمدارس.

وهو الذى بنى المدرسة المستنصرية ببغداد التى لم يُبْنَ مثلها فى مدائن الإسلام، ولم يوجد فى المدارس أكثر كُتُبًا منها ولا أكثر أوقافًا عليها، وكان لهذه المدرسة أربعة مدرّسين يدرّسون فيها على المذاهب الأربعة، ورتب فيها الخبز واللحم والحلوى والفاكهة وكسوة الشتاء والصيف، وجعل فيها ثلاثين يتيمًا، ووقف على ذلك ضياعًا وقُرى كثيرة سَرَدَها الذهبىّ وغيره.

(١) تاريخ الخلفاء ص٥٣١.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٥٣١.
(٣) تاريخ الخلفاء ص٥٣٢.
(٤) تاريخ الخلفاء ص٥٣٢.
(٥) تاريخ الخلفاء ص٥٣٣.

فرحم الله أهل الخير وأهل الصلاح والإحسان، ورفع الله درجاتهم فى أعلى الجنان، وألْهَم فعلَ الخير سلاطين الزمان، ووفقهم لنشر العدل بالقسط والميزان.

وكانت مدارس بغداد يضرب بها المثل فى ارتفاع العماد، وإتقان المهاد، وطيب الماء، ولطف الهواء، ورفاهية الطلاب، وسعة الطعام والشراب، وغير ذلك من الأسباب.

ولقد حُكى أن أول مدرسة بُنِيَتْ فى الدنيا مدرسة نظَامِ المُلْك فى بغداد، فبلغ علماء ما وراء النهر هذا الخبر فاتخذوا للعلم مَأتَمًا وحزنوا على سُقُوط حُرمة العلم، فسُئلوا عن ذلك فقالوا: إن العلم مَلَكةٌ شريفة فاضلة لا يتطلّبه إلا النفوس الشريفة الفاضلة بجانب الشرف الذاتىّ والمناسبة الطبيعية، ولمّا جُعل عليه أجرة تتطلّبه النفوس الرذلة وتجعله مكْسَبًا لحطام الدنيا وتتزاحم عليه لا لتحصيل شرف العلم بل لتحصيل المناصب الدُّنْيَويّة السفلة الفانية، فيرذل العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه.

ألا تَرَى إلى علم الطبّ فإنه مع كونه علمًا شريفًا لَمّا تعاطته أراذل اليهود رذل برذالتهم ولم تشرف أراذل اليهود بشرف علم الطب.

وهذا حال أكثر طلبة العلم فى هذا الزمان الفاسد.

وهذا شأنُ طُلاَّب هذه العلوم المتداولة الآن فى هذا السوق الخاسر الكاسد، فإنك ترى أكثرهم مع إدْبَاره فى الطلب، وإكْبابه على فنون العلم والأدب، يزداد كلّ وقت عُجْبًا وكِبْرًا، ويتعاظم على كلّ أحد تيهًا وفخرًا، ولم ينتق من أوْضار الأخلاق الرذيلة، ولو اكتسب مَهْمَا اكتسب من الفضيلة، وقلّما يتحلّى أحدهم بحُلَى الأخلاق الحسنة الجميلة، والمزايا الفاضلة الكاملة الجليلة، وما ثمرة كسب العلوم غير التخلّق بحسن الأخلاق، والعمل بمقتضى طيب الأصول والأعراق، والله تعالى يُبَصّرنا بعيوبنا، ويستر علينا معايب ذنوبنا، وينيّر بصر بصائرنا ويزيل عوار قلوبنا، ويُرينا الحقَّ حقًا ويرزقنا اتّباعه، ويُرينا الباطل باطلاً ويوفقنا لاجتنابه.

قُلْتُ: وحيث انجرّ الكلام إلى ذكر نِظَامِ المُلْك فأذكر لك حكاية لطيفة نقلها صاحب كتاب وصل الحبيب ونديم اللبيب، قال: ذكروا أن نظام الملك لمّا استوزر بالعراق للسلطان أبى الفتح السلجوقى قام بالدولة أحسن قيام فشيّد أركانها، وأسّس بُنْيانها، ووالى الأولياء، واستمال الأعداء، وعمّ إحسانه العدوّ والصديق، والقريب والبعيد، وكان أقبل إقبالاً عظيمًا على العلماء والصلحاء والفقهاء وبنى المدارس العظيمة والخانقاهات العالية، وأجرى الخيرات الكثيرة والكساوى الجليلة الفاخرة لطبقات طلبة العلم والمشايخ الصوفية وغيرهم ممّن يتوهّم فيه الدين والصلاح، وعمّ بذلك سائر الأقطار من بلاد العراقَيْن إلى الحرمَيْن الشريفين، بحيث كان يخرج من خاصّة الخالصة السلطانية والخزائن الديوانية من هذه الوجوه ما ينوف عن ستمائة ألف مثقال ذهب غير الذى ينفقه من خاصّة أمواله ومحصّلات غلاله وما يدخل عليه من الهوائيات وغيرها، ولعله كان يقرب من القدر الذى يُخْرجه من أموال السلطنة فصار صيتُهُ فى الآفاق وكَثُرَ حُسَّادُهُ ولا يَخْلُو السُّعداء من الحُسَّاد فى كلّ زمان، كما هو مشاهد بالعيان فى كلّ أوان، وما وجدوا للطَّعْن على نظام الملك طريقًا غير إجحافه فى الإخراج من الأموال السلطانية فى هذه الوجوه، فوشوا به إلى السلطان أبى الفتح من طُرُق شتّى، وكرروا فى سَمْعه أن نظام الملك أخرب بيت المال وأن هذه المصاريف الزائدة التى يخرجها فى هذه الوجوه يمكن أن تُصْرَف فى جَمْع جيش كثيف يركز رايته فى سور قسطنطينية، وكانت يومئذ مملكة النصارى، وهى الآن بحمد الله دار مُلْك مَلِك الإسلام، عمّرها الله تعالى بمعدلة سلطان سلاطين الأنام، وحرسها بالنصر والتّأييد إلى يوم القيامة، وأنه يمكن أن يُؤخَذ بذلك الجيش كثير من الممالك والأقاليم وتتّسع بها المملكة ويكثر الخراج والأموال، فلمّا تكرر ذلك على سمع السلطان، أثر كلامه فى قلبه واعتقد نصحهم وكلٌّ كلام تكرّر على السمع قَبِلَهُ القلب وانطبع فى الطبع ولو كان واهيًا واهنًا فى نفس الأمر.

فطلب نظام الملك وقال له: يا أب وكان يخاطبه بالأب تعظيمًا له لكبر سنّه وعقله بلغنى أنك تخرج من بيت المال فى كلّ سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعنا ولا يُغْنى عنّا شيئًا، فبكى نظام الملك، وقال: يا بنى: أنا شيخ عجمى لو نُودى علىّ فى السوق ما سويت خمسة دنانير، وأنت شابٌّ تركىّ لو نُودى عليك عساك تساوى ثلاثين دينارًا، وقد اختارنا الله تعالى وفوّض إلينا أمور عباده وبلاده، فلم نقابله بالشكر ولا عرفنا قدر نعمة الله تعالى، فاستمررت أنا فى كتابتى وضبطى وأنت منهمك فى لذاتك ولَهْوك، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصينا دون طاعتنا وشُكْرنا، وجيوشك الذين أعددتهم للنوائب إذا احتشدوا يومًا كافحوا عنك بسَيْفٍ طوله ذراعان وسهم لا يعدو مَرْمَاه، وهم مع ذلك مُنْهَمكون فى المعاصى والخمور والملاهى، هم أَحْرَى بنزول القهر عن نزول الفتح والنصر، فاتخذت لك جيشًا كثيفًا وعسكرًا منيفًا ويسمّى جيش الليل، وعسكر السحر إذا نامت جيوشك ليلاً قامت هذه الجيوش على أقدامهم صفوفًا بين يدى ربّهم وأرسلوا دموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومَدُّوا إلى الله أكفَّهم، فرموا سهامًا تخترق السموات والأرضين وسلّوا سيوفًا تعمل فى كل حين، طوالاً تبلغ إلى الصين، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون، وببركاتهم تُمْطَرون، وبدُعائهم تنصرون.

فبكى السلطان أبو الفتح بكاء شديدًا، وقال شاباش يا أبت استكثر من هذا الجيش، فإنه هو الذى لا بُدَّ لنا منه، ولمّا كان كل منهما له قابلية الخير معجونًا به ما أثر عند ملكه كلام الحُسَّاد مع تكرُّره إلا تأثيرًا ضعيفًا، وزال فى الحال وعاد إلى حُبّ الخير الذى جُبِلَ عليه واستغفر الله تعالى ممّا فرط من تقصيره، فرحم الله تعالى تلك الأرواح الطاهرة، ومتّعها بالنظر إلى وجهه الكريم فى الدار الآخرة، فلقد زالوا وما زالت أخبارهم تُرْوَى، وأحاديثهم الحسنة تُنْشَر على ألْسنة الرُّواة ولا تُطْوَى.

عُدْنا إلى ما كُنَّا فيه، ومن جملة خدام المستنصر بالله الأمير شرف الدين إقبال الشرابى المستنصرى العبّاسى، بَنَى بمكة مدرسة على يمين الداخل إلى

المسجد الحرام من باب السلام، ووقف فيها كُتُبًا كثيرة فى سنة إحدى وأربعين وستمائة[١] ذهبت شَذَرَ مَذَرَ، والمدرسة باقية إلى الآن، وقد صارت رباطًا وفيه محلّ الدرس وبه كُتُبٌ وقفها بعض فقهاء أهل الخير ممن أدركناه رحمه الله تعالى[٢].

وبلصق الكعبة الشريفة فى وسط مقام سيّدنا جبريل عليه السلام حجر من الرخام الأزرق الصافى منقور فيه بالمثقب ما صورته: بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمارة هذا المطاف الشريف سيّدنا ومولانا الإمام الأعظم المفترض الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلّغه الله آماله، وزيّن بالصالحات أعماله، وذلك فى شهور سنة أربعين وستمائة، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله، انتهى.

وهذا اللوح باقٍ إلى زمان تأليف هذه الرسالة.

وكانت وفاة المستنصر بالله لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة، وكتم موته وخُطِبَ له بعد موته إلى أن جاء الأمير إقبال الشرابى إلى ولده أبى أحمد بن المستنصر وسلم عليه بالخلافة لعشر مضين من رجب سنة أربعين وستمائة، فبويع له ذلك اليوم ولقّب المستعصم بالله[٣] وهو آخر الخلفاء العبّاسيين فى بغداد وبزواله زالت دولتهم من الدنيا كما سنَشْرَحُه إن شاء الله تعالى.

وحجّت والدة المستعصم بالله فى سنة إحدى وأربعين وستمائة، وهى أمّ ولد حبشيّة اسمها هاجر، وكان فى خدمتها إقبال الشرابى الدوادار ومعه ستة آلاف خلعة، وتصدّق بنحو ستّين ألف دينار، وعُدَّت جمال ركب بغداد تلك السنة فكانت مائة ألف وعشرين ألف جمل ثم عادت إلى بغداد رحمهما الله[٤].

(١) تحرف فى (ل) إلى: «وإحدى وثلاثين» وصوابه من م، وإتحاف الورى ٣/ ٦٠.

(٢) إتحاف الورى ٣/ ٦٠.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٥٣٧.

(٤) إتحاف الورى ٣/ ٦٠.

ولمّا جَرَت عادة الله تعالى بانقراض الدول واختصاص العزّة والبقاء بالله عَزَّ وجلّ، آلت دولة آل العبّاس إلى الانقراض والزوال، وغيّرتهم الغِيَر ونابتهم النوائب وحالت بهم الأحوال، ودالت دولة غيرهم ولكلّ زمان دولة ورجال.

ما بين غمضة عين وانتباهتها يغيّر الدهر من حال إلى حال

ولكلّ شيء سبب من الأسباب، وعلّة يدور عليها التقلُّب والانقلاب، وكان سبب ضعف خلفاء بنى العبّاس استيلاء مماليكهم وأمرائهم عليهم، وتفويض جميع أمور المملكة إليهم، وتلقيبهم بألْقاب السلطان، وفرط إدلالهم على مواليهم، وامتهانهم غاية الامتهان، إلى أن صاروا أسماء بلا مسميات، وصُوَرًا هيولانيّة يتصرّف فيها بالمحو والإثبات، وصار أمراؤهم يَغْشونهم ويَغُشُّونهم، ويصل أرباب الغرض إلى أغراضهم الفاسدة لما يرشونهم، فأوّل سبب زوال الملك أن المستنصر بالله كان له ولدان، أحدهما يعرف بالخفاجى كان شديد البأس، شجاعًا فاتكًا صعب المراس، والثانى المستعصم بالله وكان هيّنًا ليّنًا ضعيف الرأى، فاختاره الأمير إقبال الشرابى على أخيه الخفاجى ليستبدّ بالأمور ويستقلّ بأحوال الملك ولا يناله مكروه من المستعصم ولا يخشاه كما خشى من أخيه الخفاجى.

فلمّا توفى المستنصر أخفَى الأمير إقبال موته نحو عشرين يومًا حتى دبّر لولاية المستعصم وبويع له بالخلافة وفر أخوه إلى العُربان وتلاشى أمره.

ثم أعظم سبب الزوال أن مُؤَيَّد الدين محمد بن محمد بن عبد الملك العَلْقمى[1] صار وزيرًا للمستعصم وكان رافضيًا سَبَّابًا مستوليًا على المستعصم عَدُوًّا له ولأهل السُّنَّة يداريهم فى الظاهر وينافقهم فى الباطن، وكان تدبيره على إزالة الخلافة من بنى العبّاس وإعادتها إلى العَلَويّين وطَمْس آثار أهل السُّنَّة وإطفاء أنوارهم وتقوية أهل البدعة وإبقاء ديارهم، فصار يكاتب هولاكو خان، ويطمّعه فى ملك بغداد ويطالعه بأخبار بغداد، ويخبره عن

(١) تاريخ الخلفاء ص٥٣٧.

صورة أخذها، وضعف الخليفة، وانحلال العسكر عنه.

وصار يُحَسِّن للمستعصم توفير الخزينة وعدم الصرف على العسكر والإذن لهم بالتفرُّق والذهاب أين شاءُوا، ويقطع أرزاقهم ويشتّت شملهم بحيث إنه أذن مرّة لعشرين ألف مقاتل أن يذهبوا أين أرادوا، ووفّر علوفاتهم فى الخزينة، وأظهر للمستعصم أنه وفر من علوفاتهم خزائن وأموالاً عظيمة توفرت فى بيت المال فأعجب المستعصم رأيه وتوفيره، وكان يُحبُّ المال ويجمعه وما علم أنه يجمعه لعَدُوّه.

وقد سُئِلَتْ بنو أُمَيَةَ بعد ذهاب مُلكهم ما الذى كان سببًا قويًا فى زوال الملك عنكم؟ فقالوا: أقواها أنا اعتمدنا على المال، واستَهْوَنَّا بالرجال، فوفّرنا المال، وقلّلنا الرجال، فأخذ العدوُّ مالنا، وتقوّى به علينا، وأنّا أبعدنا الصديق اعتمادًا على صداقته، وقرّبنا العدوَّ استجلابًا لمحبته، فصار الصديق عدوًا بالإبعاد، ولم يَصِر العدوُّ صديقًا بالاستجلاب.

احـــذر عـــدوَّك مـرّه ... واحذر صديقك ألف مَرَّهْ
فلربَّمـا انقلب الصـــديق ... فكـــان أعْلَمَ بالمَضَـرَّهْ

وكان من قضاء الله وقدره أن هولاكو سلطان المغول وجغتاى من دشت قفجاق زحف على بلاد الإسلام وجاء بعسكر جرار لا يعلم عدده إلاّ الله تعالى، وكان أقوى سلاطين الإسلام إذ ذاك السلطان علاء الدين خوارزمشاه، وكان يملك من العراق إلى أقصى بلاد المشرق، وكان له قوّة وشوكة وعسكر وافر وجُند متكاثر، فظهر هولاكو وقاتله خوارزمشاه مرارًا وهو ينكسر، إلى أن قُتل هو وأولاده وجنوده واستباح بلاده هولاكو وأسر أولاده وقتل جنوده واستباح كثيراً من بلاد الإسلام، وقتل من فيها بالقتل العامّ، وصار يجول هولاكو فى الديار، وناره فى غاية الاشتعال والاستعار[1].

والمستعصم ومن معه فى غفلة عنه لإخفاء ابن العلقمى عنه سائر الأخبار،

(١) تاريخ الخلفاء ص ٥٤٠، وما بعدها.

إلى أن وصل هولاكو خان إلى بلاد العراق، واستأصل من بها قتلاً وأَسْرًا وتوجّه إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلبه إليه، فاستَيْقَظَ الخليفة من نوم الغرور وندم على غفلته حيث لا ينفعه الندم، وجمع من قدر عليه وبرز إلى قتاله، وجمع من أهل بغداد وخاصّة عبيده وخدامه ما يقارب أربعين ألف مقاتل، لكنهم مُرْفهون بلِينِ المهاد، ساكنون على شطّ بغداد، في ظل ثخين، وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع أحباب وأصحاب، فما كابدوا حربًا، ولا دافعوا طعنًا ولا ضربًا، وعساكر المغول ينوفون على مائتى ألف مقاتل، ما بين فارس وراجل، وسالب وباسل، وفاتك وقاتل، يَثِبون وثوب القِرَدَة، ويتشكلون بأشكال المَرَدَة، يقطعون المسافات الطويلة، في ساعات قليلة، ويخوضون الأَوْحال، ويتعلّقون بالجبال، ويصبرون على العطش والجوع، ويهجرون الغُمْض والهُجُوع، ولا يبالون بالبرد والحرّ، والسهل والوعر، والبرّ والبحر، طعامهم كفٌّ شعير، وشربهم من طرف البير، يكاد أحدهم يتقوّت بطرف أذن فرسه يقطعها ويأكلها نيًا ويصبر على ذلك أيامًا عديدة، أو يكتفي هو وفرسه بحشيش الأرض مدّة مديدة، فوقع المصاف والتحم القتال، ووقع الطراد والنزال، وزحف الخميس إلى الخميس، في يوم الخميس، عاشر المحرم الحرام سنة ست وخمسين وستمائة وثبت أهل بغداد مع ترافتهم على حدّ السيوف، وصبروا مضطرّين على طعم الحتوف وأعطوا الدارَ حقّها، واستمطروا غمائم السهام وابِلها وودْقها، واستقبلوا بحُرّ وجوههم صواعق الحرب وبرقها، ورزقوا في تلك المكابدة الفوز بالشهادة، وارتقوا في الدار الآخرة رُتب السعادة، وجادوا بأنفسهم في سبيل الله وأجادوا أحسن إجادة، واستمرّوا كذلك من إقبال الفجر إلى إدبار النهار، فعجزوا عن الاصطبار، وانكسروا أشدّ انكسار، وولوا الأدبار بالإِدْبَار، وانهزموا وما أغنى عنهم الفرار(١):

ولزّهم الطراد إلى قتال أَحَدُّ سلاحهم منه الفِرارُ

(١) تاريخ الخلفاء ص٥٤٣، وما بعدها.

مَضَوْا متسابقى الأعضاء فيه لأرؤسِهم بأَرْجُلهم عِثَارُ
يَرَوْنَ الموتَ قُدَّامًا وخَلْفًا فيختارون والموت اضطرارُ

وغرق كثير منهم فى دجلة، وقتل أكثرهم أشدّ قتلة، وأعقبهم التتار، ووضعوا السيف فيهم والنار، وقتلوا من المسلمين فى ثلاثة أيام ما ينوف على ثلاثمائة ألف وسبعين ألف نفس، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الخزائن والأموال، فأخذ هولاكو جميع النقود وأمر بإحراق الباقي، ورموا كُتُبَ مدارس بغداد فى بحر الفرات، فكانت لكثرتها جسرًا يَمُرُّون عليها ركابًا ومشاة، وتغيّر لون الماء بمداد الكتابة إلى السواد.

وكانت هذه الفتنة من أعظم مصائب الإسلام، وأُخذ المستعصم هو وأولاده وجماعته وأتوا به إلى هولاكو أسيرًا ذليلاً فقيرًا حقيرًا، فسبحان المعزّ المذلّ القادر القاهر، تعالى شأنه الباهر، وعلا سلطانه على كلّ ذى سلطان قاهر، فاستبقى هولاكو الخليفة أيامًا إلى أن استصفى أمواله وخزائنه، وذخائره ودفائنه، ثم رمى رقاب أولاده وذريته وأتباعه ومتعلّقيه، وأمر أن يُوضَع الخليفة فى غرارة ويُرْفَس بالأرجل إلى أن يموت ففُعِلَ به ذلك، فاستشهد رحمه الله فى يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة ست وخمسين وستمائة[1].

وانقطعت خلافة بنى العبّاس وهم سبعة وثلاثون خليفة، أوّلهم السفّاح وآخرهم المستعصم، وبعده صار المسلمون بلا خليفة ولم يَنَل ابن العلقمى ما أراد من نقل الخلافة إلى من أراد، ولم يستفد غير سلامة أهل الحلّة من النهب والقتل بمُسَاعَدته لهم، فإن مَجْد الدين محمد بن الحسن بن طاوس الحلّى وسديد الدين يوسف بن المطهر الحلّى أرسلا كتابًا إلى هولاكو على يد ابن العلقمى وفيه كلام يَرْوونه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، صورته: إذا جاءت العصابة التى لا خلاق لها لتُخْرِبَنّ يا أمّ الظلمة ومسكن الجبابرة وأمّ البلايا، وَيْل لك يا بغداد ولدارك العامرة التى لها أجنحة

(١) تاريخ الخلفاء ص٥٤٣.

كالطواويس، تُماثين كما يُمَاثُ[١] المِلْح فى الماء، ويأتى بنو قطورا، مقدّمهم جَهْوَرِىُّ الصوت، لهم وجوه كالمجان المطرّقة، وخراطيم كخراطيم الفيلة، لم يَصِل إلى بلدة إلاّ فتحها، ولا برَايَة إلا نكسها.

فلمّا وصل الكتاب إلى هولاكو أمر أن يترجم له، فلمّا قرأه أمر لهم بسهم الأمان، وسلموا بسبب ذلك من القتل والنهب، وباء ابن العلقمى بإثمه وإثم من ظلم بسببه وكان من أهل النار، وسيعلم الكفار لمن عُقْبَى الدار.

قلتُ: وأما هذه الكلمات فما عليها طلاوة كلام سيّدنا علىّ رضى الله عنه ولا حلاوته، وآثار الوضع ظاهرة عليها، وكأنهم اخترعوه بعد وقوع الطامّة، وعند حصول هذه الفتنة العامّة، وإلا لاشتهر ذلك قبل الوقوع، وتناقلته الرواة فى كلّ مجموع، والله أعلم بالسرائر، وما تجنُّه الأحشاء والضمائر.

• فصل:

كان ممّن نجا من سيوف هولاكو من بنى العباس أبو القاسم أحمد وتلقب المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضىء بن المستنجد بن المقتفى بالله العبّاسى، فوصل إلى مصر وافدًا على سلطانها إذ ذاك وهو الملك الظاهر سيف الدين بيبرس البُنْدُقْدارى فى سنة ست وخمسين وستمائة، فخرج السلطان بيبرس إلى ملاقاته وأكرمه وأثبت نسبه فى موكب عظيم فيه قضاة الشرع الشريف، وأعانه الظاهر بجيش وتوجّه إلى بغداد ووصل إلى الفرات فى ثالث ذى القعدة سنة تسع وخمسين وستمائة فقاتله قره بُغا نائب هولاكو على بغداد فقُتل المستنصر ومن معه ولم ينج منهم إلا القليل، ولم يتمّ له الأمر[٢].

ثم وصل بعد ذلك إلى مصر من بنى العبّاس أبو العبّاس أحمد وتلقّب بالحاكم بأمر الله[٣] بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر بن المقتدى العبّاسى،

(١) ماث الشىء أذابه، يقال: ماث الملح فى الماء.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٥٤٩.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٥٥١.

فأكرمه الملك الظاهر، وأثبت نسبه قضاة الشرع بحضرته وبايعه بالخلافة وأجرى عليه نفقة، وسكن مصر، وليس له من الأمر شيء، وإنما اسمه الخليفة وأولاده من بعده على هذا المنوال ليس لهم إلا اسم الخلافة ويأتون به إلى السلطان الذى يريدون توليته فيبايعه ويقول له: وليتك السلطنة، هكذا كانوا بألقاب الخلفاء واحداً بعد واحد، فكانت سلاطين الأقاليم يتبرّكون بهم ويرسلون إليهم أحيانًا يطلبون منهم تفويض السلطنة باللسان فيكتبون له تقليداً ويعهدون إليه بالسلطنة عهداً ويولونه سلطنة الجهة التى هو فيها، فيتبرك بهذا التقليد ويتيمن به.

ولا يخفى أن هؤلاء ليس لهم من الخلافة ولا الصورة كما كان للخلفاء العبّاسيين ببغداد المحجور عليهم من جهة أمرائهم صورة الخلافة فقط، وهؤلاء ليس لهم ولا تلك الصورة أيضًا، وإنّما لهم الاسم المجرد عن المعنى من كلّ وجه، ولكن شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى رحمه الله عدّهم من جملة الخلفاء العبّاسيين، وكتب تاريخًا للخلفاء ذكر هؤلاء من جملتهم وقام بشأنهم واعتبارهم، وآخر من ذكر منهم فى تاريخ الخلفاء المتوكّل على الله أبو العزّ عبد العزيز ين يعقوب[١]، وأنه بويع له فى يوم الاثنين السادس والعشرين من المحرّم سنة أربع وثمانين وثمانمائة بحضرة مولانا السلطان الأشرف قايتباى والقضاة والأعيان بالقلعة فى مصر، ثم ركب من القلعة إلى منزله وكان يومًا مشهوداً وبه ختم كتاب تاريخ الخلفاء[٢].

ورأيت فى تاريخ لطيف للحافظ السيوطى أيضًا سماه الورقات فى الوفيات، أن فى سنة ثلاث وتسعمائة مات فى المحرم منها الخليفة المتوكّل على الله أبو العزّ العبّاسى المصرى رحمه الله، قال: وعهد لابنه يعقوب ولم يلقّبه، فلقّبه الناس المستمسك بالله[٣]. انتهى.

(١) تاريخ الخلفاء ص٥٩٩.

(٢) تاريخ الخلفاء ص٥٩٩.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٦٠١.

قلت: واستمر يعقوب المستمسك بالله خليفة إلى أن كَبُرَ سنّه وكفّ بصره، ودخلت أيام الدولة الشريفة العثمانية وافتتح السلطان الأعظم والخاقان الأقهر الأشمّ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مصر القاهرة وقهرها، وأزال عنها مظالم الجراكسة وعمّرها، وعاد مع الفتح والبُشرى، إلى دار السلطنة الكبرى، قسطنطينية العُظمى، فتوفى الخليفة المذكور بمصر لعشر بقين من ربيع الثانى سنة سبع وعشرين وتسعمائة، وولى بعده ولده أبو عبد الله محمد بن يعقوب ولقّب المتوكّل على الله، وكان السلطان المرحوم سليم خان لما افتتح مصر، أخذه سُرْكُنًا إلى إستنابول عوضًا عن الده يعقوب المستمسك بالله لكبر سنّه وذهاب بصره، فلما توفى السلطان سليم رحمه الله عاد المتوكل على الله هذا إلى مصر وصار خليفة بها، واستمرّ إلى أن توفى رحمه الله لاثنتى عشرة ليلة مضت من شعبان سنة خمسين وتسعمائة فى أيام المرحوم داود باشا الخادم صاحب مصر، وبموته انقطعت الخلافة العباسية الصورية بمصر أيضًا.

وكان المتوكّل هذا فاضلاً أديبًا له شعر منه قوله:

لم يَبْقَ من مُحْسن يُرْجَى ولا حَسَن ولا كريم إليـه مشتكى الحَزَنِ
وإنّما ساد قومٌ غير ذى حَسَبٍ ما كنتُ أُوثِرُ أن يَمْتَدَّ بى زَمَنِى

ضمّن فيه قول الطُّغرائى من لامية العجم:

ما كنت أوثر أن يمتدّ بى زمنى حتى أرى دولة الأَوْغاد والسُّفَلِ

وقد اجتمعتُ به وأخذتُ عنه فى رحلتى إلى مصر لطلب العلم الشريف فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وكانت مصر إذ ذاك مشحونة بالعلماء العظام، مملوءَةً بالفضلاء الفخام، ميمونة بيُمْن بركات المشايخ الكرام، كأنها عَرُوس تتهادى بين أقمار وشموس.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنّها وكأنّهم أَحْـــلاَمُ

* * *